كريم صابر

مريم العذراء والانتقاض

قصص Fiction

صفصافة
صفصافة 2012

"مريم العذراء والانتفاض"

رواية

كرم صابر

رواية: مريم العذراء والانتفاض

كرم صابر

الطبعة الأولى يوليو ٢٠١٢

رقم الإيداع: ٢٠١٢/١١٥٥٥

الترقيم الدولى: ٤-٠٦-٥١٥٤-٩٧٧-٩٧٨

الناشر : محمد البعلى

المستشار الفنى: أحمد الزغبى

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

٥ش المسجد الأقصى – من ش المنشية – الجيزة – ج م ع.

كرم صابر: أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة ، وبدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩ ؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها المتهم وأين الله ورائحة الأنوثة وعشق الحياة وفؤاد المدينة وطائر النسيان ومريم العذراء وكلاب السكك.

طبعة إليكترونية : ٢٠١٥

ملحوظة : سوف نرفع تباعًا على الموقع القسم الثانى من الرواية حال مراجعته

لروح ثناء المِصري

البطلة المصرية التى ضحت بحياتها لتحمى طُهْرنا،

آمل أن تسامحينى

"رجـــــــــــاء "

يا مريم هل تُحسين بقهـرى حـين قـررتُ ليلـة نـزول الوحى سرد قصتك التى طالما أجلت صدورها لآخر العمـر، اصفحى عنى يا "مجدلية " إذا تفوه لسانى أو خطَّ قلمى أو كشفت عيناى مستورك، أعطيتنى الحق بالـدخول لقنـوات الحب، لأنقـل للعميـان قوتـك، آمـل أُظهرهـا بـين سـطور حياتـك الخالـدة، اغفـرى لى يـا أروع امـرأة خلقهـا الله، أعرف أن القتل هو العلاج الوحيد للخيانـة، فهـل تغفـرين غدري، أم تتركيننى أموت وحيدًا بذنبك ؟

"محيط الشر "

أى علقم طال روحك يا "مريم " وأنت تقفين أمام حبيبك، تطلبين العيش بجواره ولو ميتة ؟ أية مرارة انطلقت وراءك وأنت تتمنين رؤية وجهه لدقائق؟ دهس مشاعرك القطار، نظر العاشق إلى لحمك المهروس من بعيد، قائلاً : " لماذا اقتربتِ من فلنكات سكة الحديد ولم تهاب الأخطار؟" أى جحود فرم زهورك وأنت تتلمسين الأعذار لغيابه، لتقولى بنبرة عطوفة: "كان الله بعونه، كيف أطلب منه ترك أولاده وعمله ليؤنس وحدتى ويوقف فتك روحى ؟

كلما غاب دون اعتذار قلتِ لتُصبِّرى نفسك: "الجاهل لا يفهم سر الحياة، سوف أذيب قلبه بطُهر عشقي"، قدمتِ قرابين المحبة، لم تبخلى بروحك ليتمرغ فيها ويعود واثقًا بأن الحياة تستحق تلك الرائحة الجميلة التى تفرزها مشاعرك ، آلاف المرات تجاوزتِ بشاعته، تلمَّستِ نكرانه ، لم يعد شىء يُذكرك بخداعه سوى تسامحك، ومع ذلك ظل وجهه الملاوع يحاول شم نضارتك الدائمة ليُعْجِزَ روحك الطاهرة عن بلوغ السلام.

نسيتِ كيف حاول إفقادك الأمل ببلوغ نهاية الرحلة التى طالما حلمتِ بمشاركته بهجتها، ماذا كان يبغى قلبه القاسى ليجبرك على نسيان لحظات حياتك بدعوى غريبة يطلقها دائمًا بمواجهة إخلاصك: "لن يمكننى تقديم شىء "، أية مرارة تذكرك بملامح وجهه وهو ينكرك بتلذذ ، ويقهر حلمك بالسعادة ؟ أى بؤس أصابك ليدفعك دائمًا للفشل ببلوغ الأمل، ليصيبك القهر والخوف من المجهول ؟ اليوم تترحَّمين عليه رغم قسوته! أى بحر للرحمة والحب تروين منه روحك النقية يا خليلة الملائكة ؟ !

سقَتْه الرحيق الصافى الأبدى، القادر على نزع الشر وشفاء الجرح، فكسبت الحورية الرهان وخسر الشرير الذى يقوده بتماديه وتجاوزه ناموس النور.

يتذكر دائمًا قبلتها الأولى أمام مدخل الشقة المغلقة لصديقتها الحميمة " زيزى"، حين انقطع النور فجأة، لم تجد إلا وجهه المضىء لتلقى بعطرها الفتان على فمه لترويه.

وضعتْ رحيق النساء المبدع بين شفتيه، ظلت بأحضانه ساعة تلتهم ريقه وأنفاسه حتى لا يحس الجيران بهمس الحورية، ظل سنين يستمتع بقبلتها المباغتة، جرحته بأجنحتها النقية،

سكبت بحور الحياة في قلبه، لينشر الأمل بقلب كل من يراه بفعل نورها الرائع، هرست دمه، فعصته بماء الورد، خلطته بمعجون السعادة، تدفقت "مية المحية "من عينيه دون إرادته لتشفى المرضى، فى لحظة مباغتة دهنت جسده بالفل المخلوط بالشبق ، تمكنت من ذكوريته، يومها اختفى الشر بعيدًا، عرفت سر خلاصه، فخبأته برموش عينيها لتديره بعشق ليصارع مارده المؤذى ويهزمه، الآن يحس بالفجيعة كلما ابتعد عنها، مشتاقًا إلى مخلوط روحها ليظل حيًا.

عندما دعاها لزيارة أخته الوحيدة، استقبلتهما بالورد لتعيد للصبار رحيق الجنة، جلست بالباص ملتصقة بجسده، أطلقت نيران الحب على قلبه، فتح شرايينه لاستقبال نداء عينيها ، أرسلت بكل لغات العالم التى كُتبت والتى لم تُكتب أبهى الأحاسيس، فوجئ بيديها خلف ظهره تلامس أذنه، تحسست أصابعه رقبتها بعفوية، تمادت فوصلت خلف شعرها، وضعت يديها فوق فخذيه الملتهبتين لتطفئ ناره، عندما همَّ الباص بالوقوف، قالت بابتسامة وثقة: "وصلنا" .

حين شاهدتها أخته قالت : "تزوجها يا " سلطان " فلن تهزم قسوتك إلا هذه البريئة الحانية"، تمادى فى الغرور ودون سبب وبدعوى " الطمع بالوقت" قاطعَ بنت أمه الوحيدة ، حرم نفسه سماع نصائح من يحبونه دون مقابل ، القديسة الباهرة تستحق كل هذا العشق: هكذا قالت أخته وهى تودعهما.

لكن المجدلية كانت متيقنة من ربطه بسرير المحبة ، سار وراءها لبراعتها في ضخ أنوثتها المتجددة بأشجار قلبه الجافة، حبكت خطتها لتؤمن مصيره.

تذكرت ببهجة تجاوزها للخوف حين أحست بقلبه متيقنة بطهره ، خطفته بعيدًا بفندق القرية المسحورة، المحاط بأشجار البرتقال ، ادَّعت لأمها سفرها للالتحاق بعمل جديد يُدر دخلا وفيرا لتنفرد بقلبه وتبحث عن إزالة غشاوة البكارة بعينيه الملتهبتين، عاش لحظاتٍ مذهلة بأحضانها، شم رائحتها المخلوطة بزهور الفل، ناما ثلاثة أيام بغرفة واحدة كزوجين، تحسس بكارتها بإرادتها الواعية، شربت خمس زجاجات بيرة وخلعت ملابسها، فكت أزرار قميصه الأبيض، ونامت على السرير ليفجرها.

أمسكت قضيبه لتكتشفه، حكته بغشاءها، تحسس حلمتيها النافرتين مذهولاً من عينيها المفتوحتين، ليشاهد بنفسه أنبل ما وصلت إليه البشرية من فتوحات، قبضت على نبضه وروحه،

فتَّت جسده، قائلة: "دوس شوية يا حبيبى، فتحت فمها بشبق كأنها تشرب كل المطر، تحسست ظهره بدفء ، شدته برقة لينطلق بكل قوته، راكبًا حصانه الأحمر، واضعًا عضوه بجنتها .

أطلق العنان لشرايينه لتتشرب من أعماق البتول ، تشبع من عينيها، خلبته روعتها وهى تصرخ ... آه آه، كانت تبكى كحورية لم يمس جسدها الدنس، طار فوقها ، تحسس أجنحتها الرقيقة، غرق الحبيبان ببحر الهُيام، صرخت بعشق: "الحقينى يا مه....الحقينى!"

طارت فوقه وتحته ساعات كفراشة حرة، دخلت الحمام مكتملة الحسن، بللت جسدها ، نادت عليه ليرافقها، تلمس جسده مياه الطهر، أفقدته الذاكرة، داوت جراحه بلسانها ، تسرسب العطر لفمه، اقشعر بدنه، امتلك أنوثتها وسط البحور ، وتلاقت أرواح العاشقين لتأكد خلود السعادة.

انتعشت لتحكمها فى نبضه، وفقدَ كل صور النساء اللائى عرفهن منذ الميلاد .

حين وثق برحيقها، تأكدت بامتلاكها لقلبه ، صلى كعبد فى محرابها ، روت بامتنان جوعه لتنال حلمها بالنوم آمنة بحضنه، فى المشهد الأخير لم يتذكر وعده، ونخس الأمانة، ونكر حقها كفتاة مخلصة لرجل مؤذٍ.

عندما قرر تركها تساءل بمكر: "كيف أتجاوزها؟"، أجاب الشرير داخله الذى ينتظر لحظة سقوطه : "حينما تنظر إلى عينيها تصورها كمومس تسعى لابتزازك، ركز على عينيها كداعرة، تعاشرك لتأخذ ما فى جيبك، تذهب لرجل آخر وتنام معه فى الليلة نفسها فيعطيها أجر جسدها العارى، يفجعها ويلحس فرجها، فتتذكر ضعفك وتنعتك بأقذر الصفات، لا تتردد فى رؤية حقيقتها، لا تتعاطف معها، هذا قدر العاهرة الأبدى.

بهذه الطريقة تدهس رقتها، لا تدع بقلبك شفقة، لا تتراجع عن التقدم لفقء عينها بقوة، ونعتها بالمخرومة، تعامل مع نبرات صوتها الحنونة بسخرية المقامر، لتيأسَ من إرجاعك إلى طريقها.

لا تتذكر كلمة طيبة قالتها ، لا تتذكر مواقفها المغامرة لإنقاذك ، لا تتذكر إلا سفالتها، ارتضت حضنك لتستمتع وتأخذ أجرتها، جراء فتح فخذيها، تمارس مهنتها لتأخذ الثمن من كل

عابر سبيل مقابل عرقها ورائحة جسدها، وقتها فقط سوف تلين لك وتعلم أنك الرجل الذى يستحقها.

كانت جلسة قاسية رغم فجره، قال مركزًا على عينيها: "ماذا تريدين ؟"، كان تاجها فى هذه الليلة باهرًا، وقفت أمام المرآة ساعات، اختارت ألوان ملابسها الخضراء الفاتحة لتبهج روحه، وضعت عطر الزهور الخلاب الذى احتفظت به سنوات بصندوق ملابسها السرى لتسحر فتى أحلامها، فوجئت بحبيبها يقول بغل: "ماذا تريدين يا داعرة ؟!"

ردت بأمل:"حبيبى، أريدك أنت"، قال: "ليس بجيبى نقود لأحاسب الكوافيرة والمطعم والتاكسى والفندق"، استكملت بإخلاص حواره: "لا يهم أنا معى"، قال: "أحتاج آلاف الجنيهات لأخرج من قاع الذل الذى ينتظرنى".

أخرجت حقيبتها، وضعت كل ما تملكه أمامه، بكت لظروفه الصعبة، قائلة: "لا يهم سأدبر المبلغ خلال ساعات ".

أرسل شره لعينيها، باغتها ببذاءات كثيرة ، وصرخ باستنكار: "ستذهبين لأقرب فندق ليركبك شيوخ العرب وتحضرى المبلغ"، بكت البتول على الفجيعة، فقام مفزوعًا تاركًا الحسرة بحِجْرِها المملوء وجعًا، حاسب النادل متلصصًا على انطباعها، وقفت خلفه كعبدة تحاول إعادته لكنه قرر بخسة استكمال جريمته، فقال لنفسه: "ستلتقى بصديقها بوسط المدينة لتحكى عن الحرمان".

سار مفزوعًا وذهب للمقهى ليتأكد الشر بداخله من المرور بمجارى ضميره، جاءت وراءه لتُطيب خاطره، وجلست وحيدة بالقرب منه، تظاهر بالضحك مع أشخاص غرباء يعرفون إخلاصها، نظروا إلى عينيها بسخرية وتمنوا افتراسها ، جاءها صديق دراستها وجلسا على الترابيزة المجاورة، وقال مطبطبًا عليها: "مالك؟"، بكت أمامه، مسح دموعها بمنديله ، فتأكد الشرير الكامن بجدران قلبه بالنبوءة ؛ قائلاً بصمت: "الفاجرة المغضوب عليها تستحق الحرق ".

استأذن صحبته مفتعلاً الحزن، قائلاً لنفسه: ستأخذ "صالح" لشقة أمها التى ذهبت لزيارة خالها المريض ؛ لتعاشره على سرير العشق، سترتدى قميص نومها الأسود "، تخيلها متجاوزًا

الشر بجراءة عارية ، ماسحًا دموعها، ومخففًا وجيعتها بدعك نهديها الناضرين بشبق ليوقف بكاءها.

اطمأن المارد داخله، سلَّمه بخسة لمحيط الكذب، حوّله إلى ثوب مهلهل يحتاج إلى الرتق ليعيش كالمتسول باقى عمره، نظر إليها بغل مبتعدًا عن المقهى، ردت بصمت لتواجه قذارته: "زميلى كريم وطيب، لن يعاملنى كخرقة !"، دخل الحى مرتاح البال، متيقنًا بضرورة الفراق .

تمكن الشيطان من قلبه، قرر إطلاق المارد المختبئ خلف الجدار الأخير، ذهب بعيدًا وتجاوز الفُجْر، دهس البريئة بمكر لم يعهد البشر مثيله، قال لنفسه بحسرة: "هكذا حال البشر، دائمًا لا يكتفون بعطايا الرب، كلما حققوا رغبتهم فى الخير، قرروا استبداله بالدناءة ليتمكنوا من استكمال الحياة ؛ فالمجدلية تقدم الحب لكل محتاج دون مقابل، وتبادلها الدنيا بالجفاء كثمن ".

نسى براءة الفتاة الطيبة، وقال خادعًا روحه: "ليس قلبى وحدى من شرب رحيق الحب يا " مريم"، كنتِ شريكتى بشهادة رجال حى الشهداء ونسائه ، لا تدَّعى الشرف، تحتاجين الشفقة بعد اكتشاف حقيقتك ".

"حى النكران "

لا تنسَى اليوم الذى حدثته فيه غير عابئة بخداعه، قائلة بنبرة صادقة: "أنا تعبانة "، رد ملبيًا نداءها: "نذهب لشرم الشيخ يومين "، حزمت ملابسها ونزلت من شقه أمها، مُدعية السفر للعمل، قالت "رحمة" التى تحس بفجيعة ابنتها: "هترجعى امتى؟ "، ردت بقسوة: "ربنا يسهل"، حملت شنتطها المملوءة بالملابس الداخلية لتخرج طاقتها بقلب حبيبها، استقبلها عند موقف الباص بوجهه المبتسم، حمل حقائبها ووضعها بالمخزن أسفل كراسى الركاب .

حدَّثها عن قضاء أجمل ساعات العمر ، أذهلها عشقه للحياة، تناست شجارها مع جيرانها وأمها لتأخرها إلى مطلع الفجر ، لم يحس أحد وجيعتها وهى تبحث عن مكان آمن يوقف شماتتهم: "إذ كيف تعجز فتاة شريفة عن التقاط أى رجل بالشارع يلم شعرها المفرود؟".

تجاهلت حقدهم على نضارة وجهها وتجدد ملابسها الدائم، تناست نبرة صوتهم وهم يرددون: "الواطية لازم تهتم بنفسها للإيقاع بالفريسة"، قبل أن تدخل عالمه قالت بحسرة: "لماذا تتأخر عن زيارة أمى ؟"، لم يرد، هددها بشعاع عينيه، لتتهيأ للحظات السعادة والعشق والانطلاق التى تنتظرهما، رد بصمت: "كيف للأحبة أن يحاسبوا بعضهم ؟! الملائكة تغفر للشياطين أخطاءهم، أنتِ ملاكى الوحيد الباقى ".

وصل الباص أمام الفندق بالمدينة الجديدة، تقدمها ساحبًا حقيبتها على الأرض، وقف أمام "الريسبشن "، قائلاً بزهو لموظفة الاستقبال: "عندك حجز باسم "مريم " و"سلطان "، تسلما المفاتيح الفضية التى تلمع أرقامها، سحب العامل بهدوء حقائبهما ليوصلهما إلى حجرتيهما المغلقتين .

دهشت لتجاهله تساؤلات موظفة الاستقبال عن سر علاقتهما، مشى وراءها منتفخًا قائلاً بثقة أمام العامل: "نصف ساعة كفاية يا "ريرى " ؟ هنتظرك أمام الفندق عشان البحر مستنى السمك "، غسلت أحلامها بجسده، دعكت أحزانها بالمياه المالحة، احتضنته غير عابئة برواد الشط أو صوت أمها المحاذر.

المدينـة الجديـدة البيضــاء المبنيـة علــى شــاطئ البحـر تـذهل روادهـا حـين يحـل المســاء بشوارعها المبهجة المملوءة حياة، كأنها بقعة من الجنة وسط الصحراء الشاسعة، كيف أبدعَ عقل مؤسسيها ليملأوا شاطئ البحر المظلم بكل هذا النور ؟!

يستمتع الـرواد فـى النهـار بميـاه البحـر الصــافية، يغرقـون بأجسـامهم فـى قلـب الطهـر فيعودون كملائكة، يكشط المالح كل شرورهم، يذهبون لسكنهم، يغيرون ملابس الغطس ويعودون ليلاً للاستمتاع بمحال ومقاهٍ يهمس فيها العشاق الهاربون بعيدًا وسط الصحراء بأروع كلمات الحب.

تصـورت المجدليـة أنهـا تطيـر فـوق الصـحراء الشاسـعة لتشـاهد شـوارع المدينـة المُزينـة بالورد، تحط مع حبيبها الولهان بمقهى مفتوح للسماء، تتغنى فيه النساء والرجال ويتراقصون على موسيقا لا يمكن لمؤلفيها أن يتصوروا البهجة المنتشرة بروح البشر وهم يتدفأون بقلب الصحراء بهمس حوريات الجنة، هاربين من توحش الأحياء والقرى .

أذهلتها السماء وهى تتسلم الشمس الباكية آخر النهار لتفارق الدنيا، مر اليومان كلمح البصر، وأعادها الحبيب بهدايا كثيرة لأمها وأخيها، حتى لا يسألا عن مبيتها خارج المنزل، إذ كيف لامرأة أن ترحل كل شهر لأماكن مجهولة ولا تعود بالهدايا ؟!

وسط رتابة الحى تتعايش " مريم" ، على يوميات مكررة للحقد والغش ، يساند "يوسف " أمها " رحمة" كرجل كريم يحترم "حبل السرة "، فاعتقدت المجدلية بأنها الملكة المُتوجة على العرش لتظليله بالحب عليهم ، ساهم معاش جدها لأمها فى سد احتياجاتهم، تلبى "رحمة" كل طلبات ابنتها لإيمانها بأنها تستحق الحب ، لكنها تحس بانقباض قلبها لثقتها بخداع حبيبها المتزوج، رغم نصائحها واحتضانها الدائم لقلبها، تقرر الأم تركها لتخوض معركتها بحرية لتنال حقها من العشق المستحيل، حين تشاهدها حزينة تقول: "الحياة تمر بطرق متعرجة كثيرة، فالسعادة والحزن ملازمان لحياة الإنسان، المهم ألا ننسى ذلك حتى لا تتكسر قلوبنا".

تنتشر بحوارى الحى الألعاب النارية والأسلحة الخفيفة، يتباهى الصبية على النواصى بأنواع السنج والسيوف مهددين قلوب البشر، يعيش أصحاب المحال القديمة على ذكرى إبداعهم لمنتجات كان غيرهم يعجز عن صنعها، فوجئوا بتغيير أبنائهم نشاطهم بدعوى مواكبة التطور، تاجروا فى الموبايلات والسندوتشات والمشروبات بديلاً عن صوت الآلات التى افتخروا

بمعاشرتها على مر السنين، غيروا جلودهم وعملوا بالمهن الجديدة المبنية على السرعة والخداع، تحولت قيم المودة والطيبة التى كانت تدل على طهر الحى ونبله إلى مادة للتندر والشفقة ، يظهر بالحى أنصار جدد يأكلون لحم الطير الحى ويسرقون الكحل من العين، تحول الجيل الجديد إلى قوادين وسماسرة، تبادلوا السلع والخدمات وقدموها لجمهور شاركهم الغش.

أغلقت ورش الحدادة والنجارة وطلى النحاس أبوابها لتحل محلها علامات الماركات الجديدة لشبكات تليفونية وأجهزة إلكترونية وموبايلات باهرة بالتقاطها همس النمل ودبيبه بين الشقوق، اكتشف الجميع اختفاء ملامح نساء الحى الآمنات السعيدات المرتديات ملابس فاتحة، غابت أعشاش اليمام والحمام من على أسطح المنازل، تغيرت فجأة الوجوه النضرة البكر للصبايا الباحثات عن الحب، إلى وجوه ملونة قاسية عابثة .

وسط حوارى الحى المخيف ظل يوسف "الترزى " فاتحًا محله، يتلصص على أرداف السيدات مستخدمًا عينيه الزرق اللتين منَّ الله بهما عليه، فاستحق بهدوئه ولسانه الناعم لقب "أجمل رجال الحى "، ظل محله وسط الأسواق الجديدة علامة على ماضٍ يتكاتف الناس لردم آثاره.

غاب فجأة" سلطان" عن الحى، معتذرًا بعمله الجديد، فعادت رتابة الحياة إلى الحارة ، اشتاقت البتول إلى حضنه، لتنام واثقة بوعوده، دعاها لزيارته دون أن يهاب الخرابات التى يعيش على أنقاضها.

قال بالتليفون معتذرًا: "سأغيب شهرين لمهمة مستحيلة "، لم يحكِ شيئًا عن عمله الجديد، لكنها فهمت بأن صاحب شركته استولى على قطعة أرض بعقود مزورة ليقيم عليها الأبراج، وطلب من حبيبها المكوث بالموقع لإنهاء إجراءات التملك، رشا المسئولين بدعوى توفير سكن رخيص، واستخدمه كحارس أمين للأراضى المنهوبة لثقته بخبرته القوية فى فض مشاجرات الأوباش وخداعه، عاث البشر هذه الأيام بسلب حقوق بعضهم، وانتشرت الرشوة بين موظفى العصابة، باعوا أراضى البلاد وتاريخها ليراكموا رزم "البنكنوت " فى حساباتهم المجهولة.

خرجت " مريم" من الحى، مرتدية الملابس الزاهية لملاقاة " سلطان" ، قال بالتليفون: "اتركى فتحتين بالدائرى، وانزلى على الطريق الأسفلتى، ستقابلك مخازن وبيوت مُقامة على أراضٍ بور ، ستجديننى أمامك ".

هالها وقوفه وسط الأحجار المتراكمة، ماسكًا ساطورًا كشيطان، استقبلها بودٍّ ليفسر حالـه، متسائلاً: " كيف أترك التكية دون تسلم حصتى ؟".

كادت ملابسها تتلوث ببقايا القمامة المنتشرة خلف اللوادر المحيطة بالموقع، قالت: "لماذا كل هذا البؤس"؟ رد بثقة: "حتى أستحقك"، تصور أن حضنها لن يلين إلا بملء جيوبها نقودًا ملوثة ، استكمل بأدب معتذرًا: "شهر واحد وأعود للحى لأتشمم رحيقك الدافئ ".

وقف فى حفرة منخفضة داخل الأرض، تبادلا الحديث حول الأيام الجميلة التى تنتظرهما، الجو المترب والسماء المملوءة غيومًا سوداء يعوقان وصول نبرة صوتها الرائعة إلى أسفل القبو، قال بكذب: "سوف أحجز شقتك بهذا المكان الجذاب ! ".

لم تتصور قط أن تسكن فى هذا المكان ، ومع ذلك قالت لتعاتبه: "يا كذاب، هتزور أمى امتى ؟"، تذكرت فجأة عودته للحى مزهوًا بقامته العالية، يدخل الشارع راكبًا حصانه الأحمر، يرمقه الجيران ويقولون: "أخيرًا ، رزقت مريم برجل! "

حاول الخروج من الحفرة، استدار رافعًا أحد الأحجار، وضع عليه لوحًا خشبيًا ليصعد إليها ليجاورها ، سقط اللوح المعاند فى الحفرة، هربت الوسيلة الوحيدة لنجاته، حين قارب الليل على الدخول، قال مهددًا: "يجب أن ترحلى، المنطقة مليئة باللصوص، إذا حل الظلام فلن تتمكنى من الخروج".

ابتعدت هاربة، تحاول نسيان منظره، قالت لنفسها: "عندما يعود سيغير مهنته، سآخذه إلى شقة بعيدة، لن يعرف هؤلاء المجرمون مكانه"، ونادت على سائق التاكسى الذى ظل موجودًا لإعادتها، قائلة بأسى: "الشهداء يا أسطى".

قال مودعًا روحها: "بمجرد الانتهاء من أعمالى ودفع ما علىَّ للجميع، لن أجد إلا حضنك المفتوح لمداواة جروحي"، آمنت بعينيه المملوءتين أمل ظل يعافر ليمحو الجزء المكتمل بأعماقه، دون أن يدرى بأنه ينسف معنى حياته الوحيد بيديه.

تمكن صاحب الشركة من بناء مُدُنًا للبلوكات ، واستطاع بعلاقاته وحفلاته من توصيل التيار الكهربائى والغاز، ومياه الشرب، والصرف الصحى للمبانى التى زور تراخيص بنائها، سهلت العصابة هذه الجرائم بدعوى تطهير خرابات المحروسة وإعمار صحاريها.

جرفوا ثروة البلاد بعهرٍ فاق تصور المافيا والقصص الخرافية لسرقة مغارة على بابا، وبنوا مقابل مص ثروة البلاد عمائر بأسمنت مغشوش، انهارت على ساكنيها بعد دفعهم ثمنها من كدهم وبيع ذهب نسائهم، وتم حبس بعض العمال الذين حققت معهم المحاكم بصفتهم المقاولين رغم جهلهم بالقراءة والكتابة، فإنهم آثروا الصمت ؛ لأن " سلطان" رشاهم بعشرات الآلاف من الجنيهات.

رغم سقوطه بالقاع فإنه لا ينسى أبدًا رحيق قبلتها التى ألقته بروحه أمام شقة صديقتها ، تعاوده هذه الخلطة العجيبة حينما تُقرر الرحيل بعيدًا عنه، الخيوط المتينة الملتفة حول رقبته يعجز عن قطعها، تعود متعطرة غير مبالية بألاعيب الشيطان ناسية جحوده؛ فالمجدلية دائمًا تعطى وتغفر ولا تنتظر المقابل.

رغم انشغاله بتوطيد وضع يد الشركة على الأراضى وبناء المساكن، فإن صورتها لم تفارقه ، أحسَّ بوخز الضمير وهو يبتعد عنها متذكرًا قلبها المخلص، سأل نفسه عن روحها التى تجرى فى عروقه حين اختلس نظرتها الأولى المرسلة بمهارة إلى قلبه، يوم أن سارت أمامه وسط الحى بثقة وكبرياء ، التفتت خلفها فى اللحظة نفسها التى دخل أعماقها لتحس بصدقه، تداخلت الرغبة والسلام الأبدى دون وعى منهما بالنهاية، فما الذى دار بعقلها وقتها وغيَّر مفاهيمها لتنتظره وتصدق وعوده كل هذه السنين ؟ أذهلها لون عينيه حين أرسل طاقة الحب الصادقة ليبرهن بأنه المهدى المنتظر.

آه يا بتول! دائمًا تظهرين بريئة عاشقة بكرًا، كأنك مولودة كل صباحٍ ابنة للرضا، تصدمه لأن قلبه القاسى لم يتمكن من فرم طهارتها وإلقائها فى سلة المهملات، نظر إليها وهو يودعها، قائلاً بغرابة:" هل تستحق حبيبتى كل هذا الأسى ؟".

فى الأيام الأخيرة حاول إبعادها عن طريقه، مدعيًا أنه لن يقدم شيئًا لقلبها الريان، تسخر من نكرانه وترد بثقة: "أنت أقوى من حيتان العالم "، راهنت على الجزء المتبقى بالإنسان، الذى يدفعنا لنستيقظ كل يوم، باحثين عن أى شىء نفعله، لنستكمل دورنا دون إرادة ووعي، لإشباع

رغبتنا فى الاستمرار، كانت تحسه وتفهمه، تحملت بسببه قسوة الأوباش ؛ لأنها تؤمن بأن الرضا ابن الخلاص، قالت بأسى قبل وصولها الحى: "لن يعترف بحقى إلا بالموت"، جلست بالتاكسى، هادئة رزينة حتى وصلت إلى المنزل، وتركته وحيدًا يعافر للنجاة.

أية قسوة قدمتها الدنيا لهما وهما يحاولان العيش تحت سقف واحد لينعما بالسلام ؟! استكثرت الحلم على قلبهما الوليد، انتقمت منهما لأنهما طلبا بجرأة من الجيران أن يتركوهما فى حالهما، قدموا لهما على مر السنين الغبن والشماتة، ليبرهنوا لأنفسهم بأنهم يقدمون خدمة جليلة للخالق بتفريق العشاق المخدوعين، ظلما أنفسهما مستسلمين لنظراتهم، كانا متأكدين بأنهما سيتقابلان فى النهاية لرى الجزء الناقص فى أعماقهما ليكتمل حسنهما، تجاوزا بعلاقتهما رؤية الجميع، مرا من دهاليز غريبة ليحققا انسجامهما .

ادعت القديسة العفة بعد طعنِها على يد حبيبها مرات كثيرة ، تركته يتحسر على سحق الرضا بين الأفئدة المحرومة، لم يتمكن قط من الخلاص لبراءتها، استحق بظلمه أن يرحل دون رجعة إلى عالم أرض الجفاف المخيف.

كان الله فى عونك يا سيدة الخلق، دخلت بعفوية مجاله طامعة بالرضا، رغم يقينه بالكذب ظل يرسل الإشارات ليطمئنها، أية مرارة تذوّقها قلبها كل تلك الأوقات؟ أية متعة جناها وهو يتهرب من حوريته، معتقدًا أن عشقها سبب آلامه ؟ تفضل عليها بالنكران بتصديق نفسه بالوهم، تيقن بأن قلبه هو الأمل البعيد الباقى لسلامها فرفض الاعتراف بحقها كامرأة.

استعصت طريقتها على الفهم، فحين يأتى ذكره، تراوغ أصدقاءها لتلهيهم عن عشقه، استخدمت حيله لتبرهن للجميع أنها القديسة التى لم تمس روحها رائحة الرجال.

الجميع يعرفون أنه يختلى بها فى شقق الحى ليعاشرها، لم يَخُل خداعهما على أحد، بررا فى انسجام مفضوح علاقتهما برؤيتهما المشتركة لإنجاز مهام مستحيلة، لم يصدقوا أحلامهما ، رغم التقائهما على المقاهى البعيدة خوفًا من عيون المتلصصين، فما بالك باختلاء فتاة جميلة مع عشيقها الولهان الذى يقدم المن والسلوى لروحها أيامًا طويلة فى حجرة مغلقة؟! أهل الحى لا يعرفون إلا شيئًا واحدًا فى عالمنا المخيف تربوا عليه وآمنوا به: "إنه ما اجتمع رجل وامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان !"

يعرفه أهل الحى كفتى مغوار ؛ بعد تخرجه تزوج من "خديجة " الموظفة بمستشفى الحى ، استقرت حياته وتزايد دخله بعد التحاقه بشركة كبيرة بوسط المدينة، توطدت علاقته بصاحب المكتب بعد تقديم خبرته الكبيرة فى العهر وتجهيز السلع التى يحتاجها البشر بمهارة مدهشة ، سافر إلى بلاد بعيدة ليعقد الصفقات، فأصبح لظهوره وسط الشارع بهجة، تلمسها الأسطوات الذين يملأون المقاهى والورش كل يوم، مكّنه التجوال بالمدن الكثيرة من المبيت خارج منزله بحرية، تاركًا زوجته المسكينة وحيدة مشغولة بتربية أولاده.

تعود خديجة من المستشفى لتدخل المطبخ مُحمَّلة بالخضر والخبز ، تشعل النار تحت الحلل المختلفة لتجهز الطعام ، وفى الوقت نفسه تغسل ملابس الأولاد، وترتب حجرات الشقة بسرعة فائقة ، قبل عودة أولادها من المدرسة، لاستكمال دورها فى متابعة دروسهم، تفصل بينهم بالحجرات المختلفة ، لتتمكن من إعداد واجباتهم، أصبح الأولاد كل ذخيرتها فى الحياة، حددت هدفها متحملة إهمال رجل اعتقدت يوم زواجها بأنه كل المُنى .

يتركها بالأسابيع والشهور مدعيًا السفر لإنجاز أعمال مبهمة ، ليعربد بالمدن الساحلية وغرف السكارى باعتباره رجل المنزل الذى لا غنى عن ظله.

عندما يؤذن الجامع القريب معلنًا صلاة العشاء تتكوم كجثة هامدة بأنتريه الصالة، تعلم أنه يعاشر نساء أخريات، لكن مهمتها المقدسة بتربية الأولاد تمنعها من مواجهته ؛ حتى لا يتهدم سقف البيت على رأسها، تتجاهل أحاديث الجيران عن علاقة زوجها بفتاة الحى الباهرة، قائلة: "اللى خدته القرعة تاخدوا أم الشعور ! ".

بعد عودته إلى الحى مرة أخرى واعدته " مريم" بكازينو البحر ، استقبلته كفراشة، احتضنها بقلبه، بادلته العشق، شربا ليمونًا باردًا وتحدثا كعصافير ، أخذته إلى شقة صديقتها ليفتنها بتجدده، كان يعلم بأنها محطة مؤقتة فى رحلته الطويلة، خدعها لتعتقد أنها محطته الأخيرة، ففتحت قلبها ليغترف النور من أعماقها دون حساب.

روى حلمها بارتداء فستان الفرح الأبيض الذى يلف جسدها ودموع أمها تبلل خديها فرحًا بليلة عُرسِها، تمنت توديع الشقة التى عاشت فيها طوال عمرها، بالجلوس على كرسى العرش، ناظرة إلى عينى حبيبها الذى ضحى بالدنيا لينام بأحضانها تحت سقف واحد، نجحت فى إيقاعه ببحر الهُيام، أسرت عينيه غير عابئة بالمصير .

شهورًا وسنين يواعدها في شقة صديقتها، آملة برنة تليفونه المفاجئ، قائلاً: "غدًا سآتي لمنزلكم،لا تقلقي سأحقق حلمك وأُخرس كلاب الحي الذين لوثوا سمعتك، لا تهتمي بكلامهم، ثقي بخطواتي لبناء عشنا في القريب العاجل".

لكنه يعتذر كعادته، فيضيع الحلم وتغرق السفينة، تعودت حججه: "السيارة وقعت في النيل، اضطررت للسفر المفاجئ، احتجزوا أختي بالمستشفى لغيبوبة السكر "، الحجج مقنعة، لينكس بوعوده، ويتهرب من طلبها للزواج .

كيف تنقل اعتذاره الدائم ؟ بأي وجه تراها أمها المسكينة ؟ تأكدت أنه لن يأتي أبدًا، لم تتمكن من قول الحقيقة بوضوح خوفًا من إذلالها ؛ فهي القوية عمود البيت، ولا يمكن أبدًا كسر شموخها، دأبَ على فجع قلبها الطيب بقوله: " يجب أن تتحملي ظروفي! كأنه يقول ليس أمامك إلا الانتظار أو الموت.

بعد سبعة وثلاثين موعدًا، والاعتذارات المتكررة، قررت نسيان وعوده، قائلة لنفسها: "إذا أتى مخاطرًا بنفسه فسأحضر أمي وخالي من السوق أو من تحت الأرض، ليس مهمًا وجودهما بقدر الوفاء بوعده "، ظل على حاله يواعدها بخطفها على حصانه الأحمر ليطيرا إلى عش الزوجية، ثم يعتذر لأسباب وجيهة، الشيء المحزن أنها كانت تصدق، أو هكذا أوحت الصبورة إلى حبيبها السلطان.

"بحر الجفاف"

خرجا من الحى حالمين بإعادة مياه الحب إلى مجارى الخير، دخلا الباص صامتين ، مرا على الصحراء والزراعات التى أخرجتهما من فضاء الحى الملوث بمحال تتبادل كل شيء مقابل التضحية بالمشاعر ، تُهيئ لهما أنهما سيعيدان أواصر العشق، لتطهير قلبيهما كالعادة آملين بتجاوز غل الجيران وتشفيهم، باغتهما السائق فجأة بإعلانه الوصول إلى أرض المدينة الساحلية الخلابة .

حينما تلفحك نسمات هوائها البارد تحس بالسعادة تدخل روحك ، يذهلك الكورنيش و"بلاجاته" الباهرة المملوء بالآملين بحضن دافئ ومشاعر نقية، ستجلب المقاهى المنتشرة على الشاطئ الاستشفاء والخير والسكينة لقلبك ، الأنوار البيضاء حول قلعتها المشهورة تدل على شموخها رغم اللصوص والقراصنة المتربصين بموانيها، سيبهجك وجوه البائعين ونساء البمب والمراجيح المحملة بالابتسام الدائم وهم يتراقصون أمام ضريح الولى الصالح، ليبقى بذاكرتك كأمل أخير للعودة لرؤية أنواره، يلتف المريدون بجسده المختفى بأقمشة خضراء وأنوار زاهية، كمسحورين بمجد مرشد الحب الإلهى، تتعجب من انتشار بائعى اللب والآيس كريم على الشاطئ، لتتذوق أشهى روائح الرضا وأنت تتبادل النظر بعيون حالمة فى استكمال مسيرة الحياة مادام هناك أمل بمعاودة رؤية هذه السماء مرة ثانية.

تمتلئ أحياؤه النظيفة والرثة بروائح الأسماك الملتفة حول المداخن، تدور مبانيها العتيقة بشوارع متعرجة مملوءة بمحال تظل مبتهجة ليل نهار، رغم تغير شهور العام بين البرد والحر، فإن مدينة الأمل تظل تلقى بنسماتها الرائعة طوال العام.

يداعب ذكر الحمام الأبيض فوق المياه الزرقاء أنثاه ببراعة، فيدعوك للتوقف مذهولاً من براح السماء خلف مياه البحر الشاسعة، فتتمنى العيش إلى آخر العمر بمبانيها وشوارعها البهية، تدخل مجالها مع بدء الصيف كأنك عائد لروحك المفقودة تتحسس الهواء بدهشة وعيناك تغرغر بالحب، فيمتلئ قلبك أمانًا وسلامًا ، وتعود بعد الرحلة حزينًا ؛ لفراق أجمل سماء خلقها الله لتطهير النفوس من الشرور والأذى.

حين وصل العاشقان إلى باب فندق البحر العالى، قال العامل الذى يعرفهما: "شرفتِ يا هانم"، لم ترد عليه، لكنها أشارت إلى حقائبها ليرفعها، سار أمامهما نحو الغرف التى حلمت كثيرًا بأن تنزل بأجنحتها مرتدية فستانها الأبيض.

يضع حقائب كل منهما فى حجرته، يودعهما بلطف بعد تسلمه ورقة العشرة، يسير منحنى الرأس لأنه يعلم أسرارهما، متجاهلاً سبب نزولهما بالفندق سنين بغرفتين متلاصقتين دون أن يفكرا فى أخذ حجرة مشتركة.

استأذن " سلطان" حبيبته ليتفرج على ماتش الكورة بمقهى البلطى، قالت: "سألحقك "، رد بحب وبهجة: "لا تتأخرى "، ونزل من الفندق منتشيًا.

دخلت عليه المقهى كحورية، تلبس "الجاكت "الأحمر، يلمع شعرها البنى كجنِّية، ينضح وجهها بالحب والبراءة، بهرت الرواد، أذهلتهم أنوثتها البارعة، صوت حذائها العالى يخطو بزهو نحو شخص تعتقد أنه رجلها الوحيد.

قال دون أن يراها: "شدى الكرسى واقعدى"، لم ترد عليه، ظلت واقفة تنتظر استقبالاً يليق بأميرة، وقفت أكثر من ساعتين واضعة الكحل بالعين، لتتزين لحبيبها الذى اختاره قلبها، لكنه لم يحس ببهجتها ؛ لانشغاله بالتلفاز ، كرر قولته المستفزة: "شدى كرسى واقعدى".

لن يمر اليوم بسلام، أطلق البركان الكامن فى قلبها، فخرجت عائدة إلى الفندق، أحس بخطيئته، فحاسب القهوجى ليلحقها قائلاً بود: "إيه اللى حصل "؟ أجابت بحسرة: "أنت مبتفهمش "، رد بهدوء: "لماذا "؟ استعادت توازنها، قائلة: "لا شىء"، تركته وسارت وحيدة، أسرع وراءها، نظر فى عينيها ففهم دناءته التى قدمها إلى محبوبته.

حين طلبت منه أن يجيب عن أسئلتها قبل السفر لمعرفة طبيعة علاقتهما، لم يرد بإجابات واضحة، اعتقدت أن المدينة الخلابة ستشفى روحه فطلبت منه السفر، لكنه كعادته يخادع ليفجع قلبها، لتقبل وجودها بالهامش حامدة ربها.

رغم عدم وعيه فإنه قام بتوصيل رسالة الإفك ببراءة مذهلة، عاودته ذكريات الحى كشيطان مخادع يفتقد البراءة، تعجب من حزنها المفتعل، متذكرًا حكمة صديقه " موسى" حين

تردد فى اصطياد النساء لصاحب الشركة قائلاً: "إذا رغبت فى تعليم ابنك الخسة فعليك أن تلتهم قلبه، فتصرعه وحيدًا للمجد ، بخلع ضميره، ليخون أصدقاءه ويكسب المال بالنصب، ويخرج زى الشعرة من العجينة من خرائب الجريمة، وقتها تقول بسعادة لتطمئنه على نفسه: أصبحت رجلاً، وتردد بفخر نعم الابن الناضج ! تطمئن روحك لتموت مرتاحًا ؛ لأنك نزعت منه إنسانيته، تصرخ حامدًا ربك بزهو وأنت على سرير الموت وهو ينظر إلى الأثاث غير شاعر بوجودك، قائلاً: "نعم الابن البار ! الآن يمكنه الاعتماد على نفسه ومواجهة البشر".

هكذا قال " سلطان" دون أن يشعر لحبيبته: "الآن يمكن أن تموتى محسورة "، عاد لشره، قائلا بصمت وبنظرة أفزعتها: "لم أشعر بك، أنت خرقة بالية، لم أحس رائحتك".

رغم خداعه انطلق ليلحق بامرأة وحيدة، سار وراءها نحو الشاطئ، قال لنفسه: "أأحاكم نفسى لأرضيها ؟ هل أحتاج منها شيئًا ؟ "حين لحقها صرخت بنبرة صادقة: "أريد أن أتزوجك"، رد بهدوء: "دا يوم المُنى، لكن الوقت غير مناسب"، ذكرته بهستريا سنين صبرها وهجرها، حكت مشاهد مفزعة، ادَّعت أنه قام بها، لم تغفر له أو تسامحه كما ادعت، لم تنسَ زواجه بامرأة أخرى وإنجابه للأطفال قبل لقاءاتهما السرية.

ظلت تسبه وتصرخ بجنون وهى تُذكره بنبرة صوته وهو يحادث أبناءه بالتليفون، حاول تطييب خاطرها، ألقت بيديه بعيدًا، نظرت باستياء واحتقار إلى كل شيء حتي شاطئ البحر.

لم تصمت إلا حين ذكرها بأصدقاء دراستها وجيرانها كدفاع أخير عن قلة حيلته، قال بسفالة: "كلهم يحتاجون حضنك على السرير"، ردت بغضب: "حمونى من شرك، لولاهم لأصبحت دُمية بمعترك الحياة بعد نكرانك المستمر"، تسبه وتهين ضميره لإعلانه الكاذب بحمل الأمانة، وضعته بمستنقع عفن ؛ إذ كيف يتهم حبيبته الرقيقة بالخيانة؟!

أدارا وجهيهما للبحر صامتين، امتلأ أمامهما حمامًا أبيض، ظلا وقتاً طويلاً ينظران إلى فراغه الواسع، لفحتهما النسمات الرائعة، فعادت ذاكرةً الحب، اعتذرت عن الإهانة، حاولت تخفيف مصيبته وانتشاله من أكوام القمامة التى ألقاها لسانه ساعة غضب.

أخذته كاليتيم من يديه وعادا للفندق، خلعت ملابسها بهدوء، ظهر قميصها الفضى رائعًا، اقتربت منه قائلة: " تعال إلى حضني، سأداوى آلامك"، بكت بحرقة، قائلة لروحه المملوءة حيرة: "أنت ملاكي، لماذا تُشوه لسانك وعقلك بهذه الخيالات ؟"

حاولت شفاءه بصفائها، لم ينسَ اتهامها له بالخيانة، لم تهتم لخزعبلاته، كانت تبكى بحرقة فى قلبه لتغسله وتعيده للبداية.

أضحت المدينة الخلابة ببحرها الظمآن للعطش الملاذَ الأخير لتطهرهما وإعادتهما سالمين، كانا مُحمَّلين باليأس وهما مقبلان عليها، بهرتهما سنين بقدرتها على خسف أرض الجفاف البعيدة الملوثة باليوميات والذكريات الكئيبة، أعطتهما رحيق الزهور الحية ليتشمما السعادة، رأبت المجدلية التصدعات التى ملأت روحه، اكتشفت طرقًا مبدعة للترميم، أمَّنت الجزء المتبقى بروحه لإكمال مهمتها المستحيلة فى تطهير مجارى الشر داخل عقله.

حين ذكّرها بالماضى ليستفزها، همت بمغادرة الغرفة، قائلة: "لا تقلقنى، سأخلد للنوم والراحة"، استقبل غضبها صامتًا، انشغل بكنس بلاط الحجرة، قام واضعًا ملابسه فى الدولاب، غيَّر ملاءة السرير، سخرت من بروده، صارخة: "يمكنك النوم دون نظافة الأرض، الوسَخ بأرواحنا! " أغلقت الباب بعنف وتركته وحيدًا .

نام نومًا عميقا، محاولاً الخروج من الألم الذى يملأ قلبه، جاء للمدينة الساحلية على أمل قضاء أيامٍ ممتعة والإستشفاء من مرض العصبى الذى أصابه، لكن أسئلتها تحول دون تحقيق السعادة.

قبل إعلانهما السفر قالت بقوة ": كيف تعاشرنى كامرأتك، وترفض الاعتراف بهويتى"؟!

يتلاشى الدخول بهذه المواجهات ؛ لأنه لا يعرف إجابات منطقية لما بينهما، فهو خليلها وقرين روحها، وهى لا تكتفى بهيامه وعشقه، تحتاج لإعلان العلاقة والاعتراف بكونها امرأة مكتملة وسط الحى، ألحّت وكررت أسئلتها، لتسمع الإجابات المستحيلة لعلاقة حرة، تنمو وسط الفنادق والغرف المغلقة ومحكوم عليها بالدفن.

ترك أسئلتها ونسى وجودها بالحجرة المجاورة ، ونام بعمق ليستقبل أحلامه وكوابيسه، شاهد نفسه وحيدًا، تنهار الأرض حول قدميه بسبب شروخ روحه، يسير بين الشقوق بحرص، يقفز مسرعًا حتى لا يغرق فى القاع، لم تكن هناك زهرة واحدة حية، مات الصبار من الجفاف حزينًا، يجرى خائفًا من الموت بأرض الجفاف، يصل أخيرًا إلى البحر المالح، يظهر أمامه كمنقذ، يرتمى بموجه، يدخل بأعماقه دون الاهتمام بالنظر خلفه، كان على يقين بأن الشروخ تتسع لتنفصل قطع اليابسة، وتغرق الدنيا فى عمق المحيطات.

خرج من مياه البحر بعد أن طهَّر الملح روحه، وقف على الشاطئ المزروع بالنخيل والنباتات بألوانها البيضاء الباهتة بفعل الملوحة التى تنعش الميتين، مستمتعًا برائحة الزهور .

عادت حبيبته إلى الغرفة لتوقظه من حلمه، أغلقت الباب بالمفتاح، نامت بجواره، تحسست روحه الملبوسة، غير عابئة بكل شروخ الدنيا، فامتلأ شاطئ البحر من جديد ورودًا، ألقت بعبيرها الفتّان على الكون، تطهَّرا وضحكا بقلب صافٍ، أخيرًا فهما أن للمدينة الخلابة فوائدَ لا تُحصى ولا تعد.

نامت ساعاتٍ فى أحضانه، سحبت الوسخ من مجارى الظلام، أزالت عن لسانه قاذوراته، تيقنت بشفائه، انسحبت بهدوء، لتنام وحيدة بحجرتها المجاورة، فخورة بقلبها النقى القادر على العطاء.

فى الصباح شاهد ملاكًا يقف أمامه ويوقظه لتناول الفطور، حال دون رؤية بهجتها عودته لأرض الجفاف فجأة رغم يقظته، فظهرت الشقوق المرعبة بروحه، عادت الغربان والنسور لالتهام جسده، أحس بقلبه الميت مهروسًا ، نظرت إلى عينيه فتيقنت من ظلام روحه، تركته وقررت الذهاب وحيدة للبحر، انتظرت سماع صوته ليعلن مرافقتها، رفض النظر إلى عينيها حتى لا تحس أحزانه وتتلمس روحها أرض الجفاف المخيفة التى عاد إليها ليتهرب من المواجهة.

قالت لنفسها بعد مغادرته الفندق: شيء غريب أن يسير بين الناس، مدعيًا الزهد وهو طامع فى كل شيء، أَخَلقَ الله قلبه مختلفًا عن الآخرين، أم أن الدنيا حرمته كل شيء ليلتهم قلوب الأبرياء ؟ أيحتاج الجميع حوله ليفتخروا بقوته؟ يومًا بعد يوم يخسر أحباءه ؛ لأنه لا يستطيع أن يفى باحتياجاتهم دفعة واحدة، يلومهم لجحودهم رغم امتلاء قلبه طمعاً، يتناسى

مشاعر النبل التى قدموها، يعاير زوجته لاحتياجها نقوده حتى تطعم أطفاله، ويقول لإذلالها: "جهدى هو سبب حياتك وفتح بيتك".

على النواصى يتجمع أصدقاؤه حوله، يحيطونه بالود، فيقول بتكبر: "لولا علاقاتى لما تمكنتم من الالتحاق بالعمل"، لا يتصل بأخته الوحيدة أبدًا، دائمًا تسأل عنه، تطمئن على صحته وسلامة أولاده، يغلق سماعة التليفون، قائلاً لنفسه: "ما الذى يُذكرها بوجهى سوى احتياجها للقرش ؟ ".

قالت كل ذلك عن حبيبها ونسيت أنها الوحيدة التى أعطته الأمان دون مقابل ؛ لأنها بنت الرب العاطى ، تُحِس غدره وتتلمّس الغفران من قلبه القاسى، رغم ارتوائه بإبريق فضى من قلبها، ينكرها بعد كل معاشرة ببرود، فتهرب سريعًا من وجهه وممرات روحه لرفضه الاعتراف بكونها حوريته الطيبة.

يتذكر " سلطان" وهو فى الحجرة صراخها الدائم قبل السفر قائلة: "ماذا يضيرك فى إعلان براءتى ؟ هل تخسر شيئًا؟ سأجعل الدنيا كلها تسمع همس سعادتك، ليحسدوك، أعطنى الأمان ولا تخف من حولك "، حلمت باحتوائه ككلب أليف، فوضع الحواجز العالية حتى لا يصل إلى قلبها المطعون كرهه، لم يجرؤ قط على النظر إلى عمق طهارتها، خوفًا من علاج شره.

راهنت على الباقى من إنسانيته، لكنه دائمًا يخذلها دون أن تفهم السر ؛ أيهرب من الاعتراف بها لفشله فى تقديم الأمان ومبادلة المحبة والعشق المستحيل ؟".

يرتعب من عيون الجيران ؛ إذ كيف يرتبط بامرأة عاشرها مئات المرات وجالست رجالاً كثيرين، وحكت بصراحة لهم وهو يمتطيها كبغل؟! معتقدة أنه رجلها الوحيد الذى يمكن الوثوق بظله الواهي!

قال لنفسه: "تريد الإعلان لأصبح ماضيًا فى حضن الآخرين، فيشمت الجيران بتركى أولادى وزوجتى والسير وراء شهوتى، لن يكفيهم عشقها لوقف سخرية عيونهم، تريد فضحى والادعاء بعدم خسارتى ؛ لتنيل كرامتها والاعتراف بأنوثتها على حسابى !".

تراهن على المتبقى من رجولته فيخذلها، يعلم تفانيها وإخلاصها لظله، تبتدع طرقًا رائعة لتصل إلى جدار الشر بقلبه لتهدمه، يخفيه عن روحها حتى لا تمسه، يردد دائمًا مُتلمسًا الأعذار ليهرب من الاعتراف: "سأعلن فى الوقت المناسب ، لا تخافى من قسوتى، هذا ما عندى الآن ويمكنك فعل ما تشاءين بحرية".

عاد للنوم متناسيًا روعة المدينة وفتاته الطيبة التى هجرت الجميع لتؤنس وحدته، سافرت معه لتطهر قلبه القاسى، فتركها فى النهاية تخرج وحيدة للبحر ، استرخى على السرير عائدًا لأوهامه، متجاهلاً وجود فتاة رائعة بحضرته أملت فى العيش أيامًا لتروى روحها بدفء حبيبها، ينكر وجودها بدناءة، يشعل النار بقلبها دون علمه بمكان المطافئ .

يحرق المتبقى من رجولته، يرغب فى أن تطول الجميع رائحته ليتلوثوا، معتقدًا بخيانتهم لحبه، رافضًا تطبيب خاطرهم بنظرة حانية ليعلمهم طرق الخير ويصلبهم مختالاً بقوته.

تذكر قولتها وهى خارجة من ظلامه: "أنت مرفوض لأنك شوهتنى، لوثت سمعتى لاعتقادك أنك الأفضل، تعلم أنك الوحيد الذى وعدتنى ببناء البيت الآمن والحصان الأحمر والفستان الأبيض ونكست بوعودك، لا أمل بإصلاحك ، الوحيد الذى صدقتُ نبرةَ صوته وخدعنى وعايرنى بأصدقائى المقربين الذين يداوون جراحى ".

سأل نفسه وهو يفتح زجاج الحجرة المطلة على البحر ، يحاول أن يشم هواءً نظيفًا:" هل تعتقد بعد ذلك أنك الأفضل ؟ الجميع يعرف ألاعيبك، لن يصدقوك مرة أخرى"، ضحك ناظرًا إلى الحمام المتطاير الأبيض فوق المياه، قائلا بصوت عالٍ: "أترغب فى التوبة أم فى اكتشاف طريقة جديدة للهروب ؟ هجرك الجميع فجأة دون اتفاق، كأنهم يبلغونك رسالتها.

حين حل الظلام نزل الشارع وحيدًا، خاوى اليدين، يبحث بعينيه عن مأوى فلا يجد، سوف يقضى الليلة جبرًا بالشارع، ينفرد البرد والألم بعظامه، يصرخ متألمًا مستنجدًا بالحمام المغادر لأعشاشه، يتمنى أن تتصل به لتطمئن عليه وتقول:"لا تستسلم، لن تحس بالوجيعة، أنت أقوى من الصقيع والطقس، أنت الملاك المزين، أنتظر حصانك لنطير فوق الجبل العالى، ونتطهر من جهل المدعين"، يصمم على تدمير ما تبقى، يستمر فى غيه وجبروته لينسف الماضى والعمر القادم بدعوى الكرامة، رغم أنها ضاعت منذ نكوصه بوعده وغدره لحبيبته.

أى عهر تقابلينه يا " مجدلية " من حبيبك فى ليلة شتوية صافية باهرة، بتركك وحيدة على الشاطئ ؟!

عادت إلى الفندق ودون أن تفكر حزمت أمتعتها، وقررت العودة إلى الحى لإصراره على النكران والصمت بحيل مستعصية على الفهم، كان مشهد الفتك بقلبه والاستمتاع بشرب دمه، هو الأقرب للثأر لكرامتها، لكنها تراجعت عن الانتقام وفتحت باب غرفته، قائلة بعفوية: أتخدعنى يا غشاش ؟"، لم يرد، تمادت قائلة: "لا أريد أن أرى وجهك للأبد"، أغلقت الباب وحملت حقيبتها وقررت مغادرة الفندق وحيدة.

كم مرة عادت وحيدة وسافرت وحيدة ! سنوات طويلة أفجعها بخداعه ونامت حزينة، آملة فى العثور على رائحة رجل تأمن ظله، شىء غريب أن يستمر النكوص بحقوق الأبرياء، من رجال ادَّعوا الشرف والنزاهة مع أبنائهم وجيرانهم.

شىء مفزع أن تطولها الهزيمة آلاف المرات، ومع ذلك ليس أمامها إلا إعادة المحاولة، رغم معرفتها بالنتيجة، فإن عليها الحلم بالفوز ولو مرة واحدة، لتنال مرادها.

قال لنفسه: "ماذا تريد الطماعة ؟! نستمتع ببعضنا البعض، نسافر للاستجمام، ندخل السينما والمسرح، نحضر حفلات الموسيقا، الجميع يحسدوننا، تعرف زوجتى ما بيننا وترضى بالمقسوم، لم يعد يشغل "رحمة" أمها ما بيننا، ماذا يضيرها إذا استمرت علاقتنا الجميلة متفتحة على براح الكون؟ لماذا ترغب فى ربطى بعمود السرير؟ ستموت لتشترينى وتمتلك روحى، ماذا ستقدم لها ورقة الاعتراف بالعلاقة سوى هدم جسور المودة ؟ ألا تفهم وجهة نظرى فى مراعاة همس الجيران؟ ألا تقدر ما أتحمّله للاستمتاع معها ساعات قليلة ؟ لماذا ترغب دائمًا فى تذكيرى بأننى لا أقدم شيئًا؟ تجاهلتْ دفعى فواتير المطاعم والفنادق والشقق وأجرة التاكسى،لا تقدم شيئًا وتستمع بكل شىء، ماذا يضيرها هذه الطماعة فى أن تظل علاقتنا البريئة حرة منطلقة؟ لماذا تصر على دفنى بجوارها ؟ أية امرأة متجبرة لا تقدر ما أدفعه سوى تلك المجدلية، مدعية الطهر ؟!

مع ذلك لا أستطيع الاستغناء عن رائحتها، أتمنى النوم دائمًا فى حضنها مشتاقًا إلى رائحة عرقها الخلاب، رغم تفانيها والتصاقها بروحى أيامًا وشهورًا كثيرة، متدفئًا بطهارتها، فلديها

دائمًا المزيد من طرق العشق المبدعة، تجعلني متلهفًا أكثر لملامسة نهديها وتشمم رائحة جسدها الرائعة .

"أية خلطة تقومين بعجنها يا بتول ليظل " سلطان" عبدك الوافى ؟! أية رائحة تخرج منك تسحره وتجعله تواقاً دائمًا إلى ملاقاتك ؟! يا أجمل زهور البرية، أى عطر يفقده الليلة وهو عائد وحيدًا من المدينة الساحلية الباهرة، متذكرًا تركها بخسة لتواجه مصيرها المجهول؟!

اقترب من السائق رغم الظلام الدامس على جانبى الطريق الصحراوى، وهمس فى أذنه ليتوقف بالاستراحة ليعمل "زى الناس "، تذكر فجأة بأنه لم يدخل الحمام منذ الصباح الباكر.

عاد للحى مقررًا هجرها، لم يُجْدِ شيء معه، ليثنيه عن قراره، تمادى دون حياء أو نخوة، قام على الملأ بفضحها، وقف وسط شوارع الحى متباهيًا بأصدقائه الذين يعرفونها، فجعت خسته شرفها، ليهلل المتفرجون ويقولون بصخب: "نعم الرجل القوى الشجاع !".

جلس وسط الجيران المتلصصين على ضميره، قالوا بغل: "أين كبرياؤك ؟ "، تجاوزت الخطوط بكل ألوانها، أعلنت بجراءة السر الذى أخفيْته سنين طويلة، قالت على الملأ: "الواطى غدر بحقوقى ولحس وعوده "، أنت تعرف أن المحيطين بفرجها لا يعرفون إلا العواء، رددوا وراءها دون سند بأنك الخائن، نسوا فضلك وتعاطفوا مع صراخها ".

كذب الجيران يا "بتول"، تفوهوا بكلام بذىء يا مخملية العيون، قالوا كمالك فى الخمر، الحسرة الحقيقية أنه صدقهم، كأنه لا يعرفك، فاستحق عن جدارة البصق فى وجهه، باعتباره نذلاً وغشاشًا.

قالوا بشماتة: "إيه تاخد الريح من المقلاع ؟! "فلتبصق وتسبّك كما تشاء، ليس بيدها شيء آخر تفعله، نحن ننتظرها لنُعَرِّيها، سوف نفعصها إذا قررت الفراشة كشف ماضيك المَشين، فلتخرج وتذكر اسمك بالسوء أيها الزوج الشريف لنسحلها بسطوتنا".

لم تقبل شماتتهم، وخرجت رغم الإهانة مرفوعة الرأس، سارت مندفعة نحو المجهول، جرَّت لسان الجيران سُمعتها بالمقاهى، اتهموها بممارسة الدعارة فى أية شقة آمنة، قال "

موسى" صديقه الأصلع: " لا تهتم بنوعية العشاق، تنظر إلى عيونهم، تفهم المراد، تسحبهم لأى مكان له سقف، لتلتهم رجولتهم ".

اعتقدت أنه رجل، لكنه تمادى فى الجبن، تهدم الحائط الأخير بينهما، تصدع ما تبقى بالجدار الخاوى، عادت بحسرتها لينزف الدم من أنفها، فى المشهد الأخير لم تنظر إلى وجهه وصرخت وحيدة: " لم أنتظر منك أكثر من الصمت ".

حينما عادت وحيدة وقفتْ أمام محل والدها المصرى المغلق ، وقررت إعادة فتحه مرة أخرى لبيع الملابس متناسية مقتل والدها بسبب تجارته فى ملابس النساء الداخلية .

أية قوة تملَّكتك وأنت تلملمين جسدك العارى من على الأسفلت؟! أخذتِ القوة من صوته الهارب ، قمتِ شامخة متأبطة براءتك لتواجهى قراره، أية روح ألهمتك وأنت تنظرين إلى السماء وتبصقين فى وجهه المزيف ؟! ليفهم سر العشق والنقاء، ويرجع عن جحوده.

فى اليوم الأخير، تحسس أصدقاؤه ردفيه، وقالوا ليخففوا آلامه:"غارتْ فى ستين داهية،لا تندم على ما فاتك يا بطل".

"سوق الغش "

أمام ضيق الحال، أعادت " مريم" بمساعدة أمها فتح دكان أبيها المقتول مرة أخرى. باعت " رحمة" الملابس الجاهزة والمستوردة للجيران ، تعاملت مع التجار ليظل بيتها مفتوحًا، أعادت دخول الهواء لدكان مجهول الهوية، لتغيير المرحوم نشاطه مراتٍ كثيرة، ليتماشى مع أذواق الحى المتجددة.

تلبس النساء من دكانها البلوزات المنقوشة "والبديهات الدكلته "، يملأنَ المحل بعد المغرب، ليخترن قمصان النوم المناسبة لشهية ورائحة رجالهن المفتونين بأردافهن.

أصبحت "رحمة " خبيرة باحتياجاتهن، تبيع للفراشات الملابس الداخلية المفتوحة حتى منتصف الظهر والبطن، يدفعن القسط الأول وهن منتعشات بألوان الستان الباهرة، يعُدن بعد أشهر وهن خاليات الوفاض يتلمسن الرحمة ؛ لتأخرهن عن دفع باقى الأقساط، يأخذن قمصانًا جديدة تظهر صدورهن عارية، لم ترفض الأم طلبهن ؛ لأنها امرأة حلمت بليلة آمنة، فى حضن رجل ميت.

بسبب تراكم الديون اضطرت " رحمة" لتصفية المحل وغلقه، سدد أخوها "يوسف" للتجار الأقساط المتأخرة لمنع حبسها، سلمته إيصالات الأمانة الموقعة من النساء على بياض ليعاشرهن، مدعيًا حمايتهن من الحبس، عشقته النساء لطيبة قلبه وجمال عينيه الخلاب.

لا تنسَى البتول طيبة الأسطى " سيد" الذى يجهز لأمها الملابس بورشته المجاورة لمحل خالها، ينزل للمدينة الحرة، يشترى "البالات " المستوردة ويصنفها بورشته، يغسلها ويصبغها ويكويها لتصبح أفضل من الماركات الأصلية، يعيد تغليفها فى أكياس بعد طبع ماركة بلادها، تشتريها النساء وهن مخدوعات بالأسعار التى لا تساوى ربع ثمنها الأصلى، قررن دون اتفاق عدم سداد باقى الأقساط لضياع اللون الأصلى بفعل المسحوق !

لكن " رحمة" عاودت فتح الدكان مرة أخرى، ذهبت لأسواق العتبة، اشترت بالجملة الجبن والمعلبات، ملأته بمواد البقالة، باعت المربى والزيت والأرز والسكر للنساء العاجزات عن سداد أقساط قمصان النوم.

وقفت سعيدة بدخولهن عليها، يدفعن كل ما يملكن لشراء العشاء الأخير لأبنائهن، شككن بمبالغ كثيرة لم تعرف حسابها، ساعدتها " مريم" على تدوين حركة البيع والشراء، لعدم تكرار إفلاس المحل، ومع ذلك اضطرت لغلقه ؛ لأن البضاعة الباقية لا تكفى لسداد ديون تجار المنظفات والزيوت.

تعلم المجدلية أن منتجات الألبان والجبن الرومى والشيدر التى تشتريها أمها من التجار المدعومين من العصابة غير صالحة للاستخدام الآدمى، لكنها ذُهلت لطلب الحى المزيد من هذه المنتجات التى يعشقون ألوانها وطعمها، فضحتهما سعاد جارتهما بسبب غش مسحوق الغسيل بعد حرقه لبنطلونات أولادها، قائلة أمام الشارع:" صابونك أسوأ من مبيد الحشرات يا قوادة !" .

عاودت أمها فتح الدكان لبيع الأدوات المنزلية، ساعدها " يوسف" على إحضار الأجهزة من التجار بشرط البيع بكامل الثمن دفعة واحدة، كان عقله يشع بالأفكار والمشاريع التى تُدِر الربح، يقول بعد فشل أخته المتكرر: "المشكلة فى قلب أختى لأنها لا تفهم لغة السوق ".

سرعان ما أغلقوه لأن الناس تعودت على الشراء بالقسط ورهن نسائهم، دخل أهل الحى المحل سعداء، هنأوا " رحمة " وابنتها، لكنهم فوجئوا بالأسعار المرتفعة، رد "يوسف": "قلب أختى وبيتها لا يتحملان البيع بالقسط "، رددوا جميعًا النغمة نفسها: "الشراء من التوكيل بالقسط أرخص من أسعاركم الكاش"، نعتوها بالجشع وعدم تقديرها لظروفهم.

قالوا كلامًا كثيرًا عن حقدها وعدم تقديرها لظروفهم، لم ينسوا أنها باعت لأخيها إيصالات الأمانة بعد غلقها محل الملابس ليقاضى نساءهم ويسترد حقوقها، نظر بعضهم يمينًا ويسارًا ليرق قلبها وتتراجع عن قرارها، لكن " مريم" أصرت على وقف البيع بدون مقابل.

قالت بأسى: "المرة الوحيدة التى اشترينا فيها بضاعة سليمة رفض الناس شراءها، رد خالها بسخرية: " تعودوا على المغشوش، لا يمكن بيع سلع صالحة مرة أخرى فى هذا الحى"، تعجبوا لارتفاع ثمن الأجهزة بعد انتشار البضاعة المضروبة والمنتجات الصينية الرخيصة التى سهلت العصابة دخولها البلاد، تبددت فى الهواء محاولات " يوسف" تعريف الأهالى الفرق بين المضروب وصنع بلاده.

قالت لخالها: "سنغلق المحل ونعيد البضاعة لأصحابها "، ظهرت وسط الحى كفتاة قوية يمكنها الحسم، لم يعتد الجيران وأصحاب الورش والباعة صرامة فتاة كانت تلعب بينهم منذ سنين حافية القدمين، اتهموها بالجشع مثل أمها لرفضها الزواج من صاحب ورشة "مزواج"، قالوا: "(المئيحة) ترفض العز بدعوى الكرامة!"، استحقت عن جدارة مناداتها بالمصيبة من رواد المقاهى ؛ لنظرتها القوية تجاه عيونهم المتصابية.

حين تهل طلعتها بأول الشارع، يحنى الرجال جباهم ؛ لأن روحها الخلابة تشع صفاءً، أعطاها الوقوف بالمحل وتغيير نشاطه المتكرر وجمال "يوسف " الترزى الخبرة والقوة لتفجع قلوب العشَّاق بالحى .

مرت بأحداث مفجعة، شاهدت وجوهًا مختلفة لبشر ادَّعوا الشهامة، اكتشفت تشابههم رغم تغييرهم الملابس وأقنعتهم ، سعدت بلقائهم فى الأوقات المختلفة بالنهار والليل، شربت معهم العصائر، وأكلت بشققهم الشهد، وأحست رائحتهم واحتياجهم الأمان.

تلونوا ورقصوا كالثعالب للحفاظ على ضمائرهم عفيفة، ادَّعوا أنهم أبناء قديسين رغم امتلاء عقولِهم بالخطيئة.

سارت وحيدة فوق الأرصفة الملاصقة للجدران قائلة لنفسها: "لم يبدر من أحدهم أية ريح مبهجة لرؤيتى "، لا تتذكر اليوم ملامح وجه أحد منهم، حتى الحبيب الذى عشقته وآمنت به وأخلصت لظله ليغطى جسدها العارى، تركها وحيدة ليكسب حريته، ويرتاح من عويل زوجته ما دام غير مرتبط بمريم البتول.

رغم امتنانها بالحياة ورضاها بالمقسوم فإن ظهور "وائل" فى حياتها كان كقارب نجاة، عاملها "وائل " الذى يمتلك شقة فخمة بمنطقة راقية باحترام ورقة متناهيين ، يعمل كاتبًا فى بعض الأحيان بالصحف المختلفة ، اعتقدت أنه المنال، حكت بصراحة عن علاقتها بالرجال الآخرين، لثقتها بقلبه بعد تدخله بين تاجر الأجهزة وأمها، ليسلمها إيصالات الأمانة مقابل ردها لبضاعته، قال للتاجر قريبه: "اعفُ عنها فهى ليست بنت سوق ".

انبهر ببراعتها فأعطاها كتابًا ألفه عن "القصر والموت " لتقرأه مستمتعة بأفكارِه، دعاها إلى زيارة مكتبته بوسط المدينة ليسمع رأيها فى أبطاله، حكت عن حبيبها، قائلة: "دائمًا ما يخرج

من بين أحشائى ليضع النهاية الأليمة، يخطف لقمتى الأخيرة، ليذكرنى بمشهد التريث لالتهام الفريسة لأقع فى أسره بإرادتى.

توطدت علاقتها بصديقها الذى قدم الخير لقلبها فبادلته رحقيها الفتان ، شهورًا يقابلها بمكتبته الفقيرة بوسط البلد، يعلمها القراءة والأدب حتى أصبحت خليلته القريبة لروحة، خفف وجيعتها وأطلق فى قلبها زهور الأمل والانطلاق.

عاشت شهورًا تستمتع بمقابلات فنانين ونقاد وأدباء، وهبُوا حياتهم لإظهار قوة البشر، سمعت اتهامات غريبة لكتاب ادعوا سرقته لأعمالهم، سبه آخرون لنشر أعمالهم دون موافقتهم، لكنها علمت أن علاقاته القوية بالعصابة تمكنه من فعل أى شىء مخالف فى عالم الكتابة، كان يقول بصدق للمجدلية: " لولا نشر بعض إنتاج مكتبتى بالوزارة، لتسولت اللقمة، وأغلقت المكتبة، وعملت مع قريبى بمحال الأجهزة بوسط المدينة ".

غفرت رقته ، وطيبة قلبه تحول تقاطيع وجهه فى بعض الأحيان إلى نمر متوحش، تتغير عيناه اللامعتان مظهرة ثقبًا أسودَ بقلبه كتاجر فاشل حينما يتهمه الآخرون بسقف إبداعه الثابت، رغم ذلك قدم للمجدلية العشق والافتتان فبادلته ببحر براءتها الصافى.

حامت روح " سلطان" حول سلامها ، عاد صارخًا فى قلبها ليقول بعتاب: "أنتِ الملاك الطاهر، الحياة مستحيلة دون تواصل نورك "، تستعذب صوته، هاربة من وعوده الكاذبة وخداعه ، أحس صديقها تغيرها، فسألها مستاءً: "ماذا حدث ؟"

ردت بصدق: "ينتظرنى خلف المراكب التى تلمسها قدماى ليوقف هجرتى ، يتركنى أعد العدة وأجهز الحقائب، ليعود ببرهان ربه، لإعادتى إلى قلبه كمُخلّصة لآثامه، جارحًا قلبى الموجوع، تمتلئ عيناه حنانًا وهو يدّعى الموت، لأجل نظرة عطوفة من عينى ، يجرى سريعًا أشبه بقبطان غارق، يبحث عن باب روحى، ليتمرغ برائحة البنفسج، فأتقبل عذره، راضية بقدسية أذكاره ".

تسمعه يقول رغم وجود "وائل" بحضنها : "لا تتركى الخيار الوحيد أمامى مغلقًا ، لا تلقى شباك الفراق على عينى بقسوة، لم يعد إلا نورك يضىء غرفى المظلمة"، يحيطها خلف السفينة

الممتلئة آملاً بسياج حديدية، يجعلها بإصراره تعود لتدفئ حضنه البارد، تنقذه من الموت المؤكد، معتقدة أن ثمن حياته التى تفتديها دائمًا بروحها، يساوى غطاء جسدها العارى.

قالت " لوائل " بتلقائية: "عندما يتأكد من تقطيع الأواصر التى تربطنى بسفن الآخرين، يعود بآلامه الغائرة لقلبى المتسامح، يطعنه حتى النزيف الأخير، يتركنى وحيدة يتصبب الرصاص من عينى، يملأ العيون البنفسجية المخلوطة بالألوان الزاهية خلف المراكب حبًا، ليعوق هجرتى المتجددة بعيدًا عن شطآنه.

رغم احترامها لطيبة صديقها الكاتب، لكن عينى " سلطان" الغائب، ترسلان الصور المباغتة فجأة إلى قلبها البرىء، فتقول لنفسها صامتة بأسى: "لا يمكن أن تتعلم المجدلية أبدًا!".

تظهر روح المخادع النضرة فجأة، يتوسل بكلماته المنمقة لنيل رضاها، تشممت رائحته بأرواح عشرات الرجال الذين قابلتهم، قاتلت بدأب لتدفن علاقته، لكنه يخرج كحور الجنة ليفتت رضاها.

لا تعرف لماذا تتذكر الليلة وجهه المحب ، رغم كفاح الكاتب فى افتراسها لينسيها جرحها الغائر! يلف جسدها بذراعيه قائلاً: "أنا طفلك البرىء، عيناك الناظرتان، اسمعى خرير الماء، شاهدى زرقة السماء، لا تتذكرى غدره مرة ثانية ".

قالت حزينة لصديقها: "لا تدخل بى نار جهنم ، لا تُذكِّرنى بجرائمه "، لكن الكاتب يضغط على الجرح ليشفيها، مهددًا بجحود الماضى وسطوته ليؤكد قلة حيلتها، فيعود الحبيب ليقف حائلاً بينها وبين بناء علاقة تأمل بالخروج من ظلام الجحور.

يأمرها لتعود إلى روحه، تهرب مُتخفِّية فى الحمام، يتشمم صديقها بالحجرة عبقه الغريب المنتشر، يقول هادئًا ليجرحها: تحتاجين الكثير لتتطهرى من دنسه، ما زال يسيطر عليك "، يعايرها بعلاقتها بمجرم هارب من العشق، يتهمها بأنها عبدته ولا يمكن شفاؤها أبدًا.

تغادر المكتبة كالمطرودة، يطالبها الكاتب بالتريث والكرامة، تخرج من الباب، قائلة بصوت عالٍ: "يا ربِّ لا تجعله يطرق بابى مرة أخرى، يا مرشدى اعمِ قلبه حتى لا يعثر على روحى أو يشم رائحتى، لأتمكن من الوصول إلى الشاطئ البعيد سالمة ".

أصوات غريبة تنتشر حولها وهى عائدة إلى الحى، خاوية الوفاض، تناديها لتلحق بالسبايا المقهورات، لكن الفتاة التى نضجت ما زالت تحلم بمنزل مملوء وردًا، تؤسسه برغبتها، لتقاوم وحدتها بظل رجل أمين ، تراهن على الجزء المتبقى بقلوب الأطهار ، متمنية نيل الخلاص.

تحاول مستنجدة بربها أن يمحو ذاكرتها ليختفى وجهه للأبد، تستنجد بأبيها الميت وكل الأولياء الصالحين، لتتلاشى مخيلتها المملوءة بغدر أنصاف الرجال.

لكن الدنيا تبادلها الثمن، فالمجدلية التى اختارت طريق الخير يجب أن تتشمم مرة أخرى أنين الخيانة عبر رحلتها الطويلة .

رغم هجرة " وائل" ، تناست " سلطان" الذى قرر استكمال حياته وسط أسواق الغش وبارات الخمر المغشوشة ، تذكرت نصائح مرشدتها " سماح" قائلة لنفسها : " استمرى ، لن يتمكن من هزيمة روحك المنطلقة" .

"مرارة السقوط"

حين تدخلت صديقتها " زيزى" للتقريب بينهما، قالت المجدلية: " يجب عليه بعد فضحى أن يصمت للأبد، لكن " زيزى" أصرت على فتح قلبها الطيب فقالت: " جاءنى الفندق حزينًا طالبًا الغفران"، وعدته بإعادة مراسيكِ إلى بحر شطآنه "، دهشت من تعاطف صديقتها مع المخادع، لم تحكِ لها بأن صديقه "موسى" الذى يعرف ماضيه القذر داعبها كمومس منذ أيام، اتصلت به قائلة: "سأحضر لعملك اليوم ؛ لأفهم تطاول الجميع وسخريتهم من براءتى، انتظرنى يا غشاش ".

سبته لتعيد إلى قلبه الحياء، وليفهم نذالته فى حق فتاة نقية، "نكست بموعدها وتركته بالمكتب يستدعى وحيدًا أيام ظلمِه، غير عابئة بمصيره.

يُفْتَحُ المكتب الذى يؤويه بوسط المدينة القريبة من الحى ليل نهار، ليواكب احتياجات البشر، يعمل بصحبته بشر متفانون، يضحون بوقتهم لاعتماد صاحب الشركة على الصفقات المتنوعة المفاجئة، يستورد كل شىء صالح للاستهلاك، سِمَته الوحيدة هى تلبية الرغبات، بصرف النظر عن نوعية المنتج أو جودته أو مكان توزيعه وإنتاجه، يعتمد على خبراء يفهمون بالفضاء الكونى وخبايا العلاقات العامة، ومستشارين من العصابة يشاركونه الربح.
تخصص " سلطان" بسبب دراسته للقانون فى كتابة العقود وتهديد المطالبين بحقوقهم الضائعة لينسوها، يثق صاحب المكتب بكفاءته، فسلمه المفاتيح، مطمئنًا لإخلاصه، متأكدًا أن ثمن أجهزة المكتب لا يكفى غروره بتعذيب ضحاياه.

صادق الكثير من الزبائن والموظفين بالشركة، لكن علاقاته بجاره "موسى" توطدت، فأصبحا شريكين باليوميات الحزينة والمبهجة، يتفاهمان على إدارة المكتب فى غيبة صاحبه المشغول بصفقاته وسفره الدائم ورائحة النساء.

يتذكر الآن القسوة التى قدمها إلى قلبها، يعى جُرمه فى حق حبيبته، المضحية لأجل سلامه، ومع ذلك تركها لأصدقائه ليستمتعوا بدعك ثديها، الآن يتذكر فُجْره وخسته يوم أن قدمها إلى صديقه " موسى" دون إحساس بالعار.

عرف موسى كل شيء عن حياة صديقه وعلاقاته، غار منه لعشقه فتاة مبتهجة بريئة أذهلت الحى بعينيها كل صباح، يعرف حبه وإخلاصه لمجدها، يفشل دائمًا فى الاستمتاع بنهود النساء لتردده فى مواجهة مصيره وخوفه من المجهول، يخضع لأوامر زوجته التى تكبره بسنتين، طمعًا فى تحسس لون شعرها الأشقر، وشقتها التمليك الموروثة عن والدها المتوفى، عرفت زوجته مطمعه، فانفصلت عنه بعد إنجابها طفلتها الوحيدة " ليلى"، سمحت له بالمبيت فى الشقة، ليقينها بأن ظل رجل طماع أفضل من مواجهة الحى كمطلقة وحيدة.

رغم معرفته بعلاقة صديقه المتينة بحبيبته، لكن لعابه السائل يتزايد كلما جاءت سيرتها، حين عرض " سلطان" حبيبته عليه ؛ ليرتاح من مطاردته مغذيًا كبته وحقده، قال "موسى " قبل حضورها: "نحن شركاء فى كل شيء، أتفهم ظروفك وتضحياتك من أجل الجميع ".

يتذكر "سلطان" عينى "صديقه" وهو يصافح حبيبته ليلتهم صدرها المفتوح ، وقفت بالصالة منتشية ببهائها، تحدثوا فى أمور كثيرة، دخلوا بعدها حجرة مكتبه، أخرج زميله سيجارة بانجو، دخناها مشتركين للانفصال عن الزمن.

فجأة امتلأت الحجرة دخانًا، فقال " الحبيب لمعشوقته: "موسى " تعبان ويحتاج حنيتك"، ذُهِلت من طلبه، قالت ضاحكة: "مش فاهمة! " رد ببرود: "خديه بحضنك لتشفى روحه، سأنتظركما بالصالة "، تركها تواجه مصيرها وحيدة فى حضن صديقه الأصلع ، فتح التلفاز، ليشاهد الأحداث المكررة على القنوات المختلفة، الاعتصامات والصراخات تملأن الشوارع، يسمع صوتها وهى منتشية بحضنه ، انهار موسى ، وهى تمسح دموعه، قائلة: لا تبكِ، تعال بحضني، تحسس نهدى، المس فرجى"!

يسمع بكاءً وعويلاً لا يعرف مصدرهما ، لكنه تأكد بأن صديقه لم يتمكن من امتطائها، رغم موافقتها على ارتكاب الجُرم لإرضائه، خرجت عارية بعد نصف ساعة للصالة، قائلة: "لم يحدث شيء، شوف صاحبك"، رد بتجاهل: "البسى هدومك"، دخل عليه، قائلا له بعتاب: "موسى "احنا نازلين"، أخذها لمقهى قريب، طلب شايًا وعصير برتقال ، قالت ضاحكة: "إيه اللى عملته ده؟"، أجاب بحياد: "عاملة إيه ؟"، فهمت قصده، فردت بحزن: "كويسة "، استكمل مبتسمًا: "تاكلى إيه؟ ردت بحسرة: "زى ما تشوف ".

لن يتمكن الليلة من أخذها لشقة صديقتها " زيزى" ومعاشرتها، لن تلين له بسبب تقديمه لدرس الفجر العارى ، قالت مندهشة: "مازلت أحبك"، نادى على النادل وسألها: "تاكلى فراخ ولا لحمة؟"، لملمت نفسها بغضب مكتوم، استأذنته حتى لا تتأخر على أمها وأخيها، دفع الحساب وخرج وراءها للشارع، ركبت "تاكسى" دون أن تنظر ناحيته، منطلقة نحو المجهول.

خسر الرهان وكسبت " مريم" ، يعرف اليوم لماذا داست عليه وألقت شموخه بالطين، الآن يتذكر جرائمه بعد هجرها، لم تتصوره كقواد، يبادل عطاءها اللامتناهى بتلويث سمعتها، وتقديمها إلى كل من يرغب كعاهر متمرس.

خرج من العمل ذاهبًا إلى بار المدينة، طلب البيرة الممزوجة بالخل، قدم النادل الجزر والخيار والطماطم لزبونه الدائم، مُرحبًا بعودته إلى مقعده القديم، جلس وحيدًا بركن بعيد عن ضجيج الرواد، استدعى بصمت ذكرياته المؤلمة لرفضها هذا الصباح الرد على تليفونه، واضطرت فى النهاية فتح السماعة قائلة: "لا أرغب فى رؤيتك يا أفاق مرة ثانية، انسَ ما بيننا، لا أرغب فى سماع صوتك للأبد ".

يتذكر يوم أن أخذهما صاحب المكتب بسيارته للاحتفال بعيد ميلاده، دخل بهما فندق "أستوريل بوسط المدينة "، جلس مختبئًا بجوار حبيبته، تركه يلاطف فتاته البريئة، دهشت لصمته، حاولت إدخاله الحوار، تهرب قائلا بعينيه المحايدتين: "براحتك اختارى ما تشائين! ".

لم يتمكن صاحب الشركة من التمادى فى مداعبتها بسبب وجوده، أو هكذا أقنع نفسه لدهس براءتها، تركهما يشربان البيرة مستأذنًا جمعهما السعيد متمنيًا ليلة هنيئة، متيقنًا أنه سيأخذها إلى شقته بالمهندسين التى اشتراها للاختلاء بالنساء وإشباع ملذاته، تصوره يمص حلمتى صدرها ويدعك جسدها بأصابعه الرقيقة ، لم يُعاتب نفسه على تركها وحيدة، متمنيًا أن يأتى الصباح ليشم رائحة صاحب المكتب تخرج من بين ثديها.

فى اليوم التالى قابلته غاضبة، شتمت "سلسفين "أهله، لتركها وسط بحور سيده الغريقة، رد بسخرية على ثورتها: "لماذا لم تستأذنى وتخرجى ورائى؟ " قالت فى دهشة: "خرجت أبحث عنك ولم أجدك، فاتصلت بتليفونك المغلق ورحلت إلى منزلى دون وداعه !"

حين قابله صاحب الشركة بعد أيام ابتسم، ضغط على يديه بطريقة لم يفهم معناها، فى نهاية الشهر ضاعف أجره، بدعوى نشاطه الهائل لدعم الشركة ، وتأكيدًا لدوره فى جلب محتاجين جدد دعاه مرة ثانية إلى مشاركته احتفاله بباخرة العشق، لانتهاء استيراد صفقة "التوكتوك " المهربة الأخيرة بنجاح باهر لحصوله على ختم العصابة على الأوراق، طالبًا منه دعوة فتاته الرقيقة، أعطاه " سلطان" رقم تليفونها، قائلاً: "أنت صاحب الدعوة "، رد بخبث: "ستوافق إذا قررتَ حضورها للاستمتاع معنا"، قابلها لإبلاغها برغبة الأمير، ردت بذهول مؤكدة عدم حضورها، فأمرها بتلبية رغبته، ليؤكد شكه بطهرها، طمأنها بأنه سيكون بجوارها، قائلاً بدهاء: "لا مانع أن نستمتع معًا بمركب النيل الخالد، ليلفحنا الهواء المبهج وتنتعش قلوبنا".

ضحكات وصرخات السكارى بجواره تخرجه وتعيده إلى المشهد مذهولاً من المشاركة فى صنعه، سمع صوتًا بجواره كأنه صديقه " موسى"، قائلاً: "استكمل ما حدث، لتعرف لماذا قهر قلبك فتاة رضت بك كآخر الرجال الأوفياء ؟ "استكمل تداعياته وهو يخلط البيرة بالخمر الداكنة، متجرعًا كأس المرارة: "حضر صاحب المكتب بسيارته ليأخذنا من مقهى الميدان لشاطئ النيل"، قائلاً للمراكبى بعد إقلاعه: "شغل أغنية " السح ادح امبو " يا حاج " محروس"، "اقترب من حبيبتى ليحتفل بنجاح صفقاته الدائمة، أمسك زجاجة البيرة وجلس بجوار البتول، ليشاركنى روح عينى ".

داعبنى كأنى صاحب الحفلة، قائلاً: "افتح إزازة لضيفتك الكريمة يا " سلطان" "، كانت تضحك ببراءة، اقترب منها، التصق بجسدها قائلاً: "الجو برد عليكِ"، لامست يداه شعرها وهو يضع كوفيته على رقبتها، تحسسها برقة وعذوبة، دهشت من مغادرتى لنهاية المركب، أتجرع البيرة وحيدًا، متأملاً العمارات والفيلات بجزيرة الزمالك، متناسيًا وجودهما.

عدنا إلى الشاطئ بناءً على طلبها، دون أن تنظر إلى وجهى، قالت: "لازم أمشى "، رددت معتذرًا بأدب: "سأرحل وحدى والباشا هيوصلك بسيارته"، ركبت تاكسي، تاركًا حبيبتى بين يديه، عرفت منها بعد ذلك أنهما استكملا السهرة بفندق "أوديون "العالى، قالت بفخر: "شربت عشرين زجاجة بيرة "، لم تحكِ باقى الحكاية، لكنى أعرف أنه أخذها إلى شقته بالمهندسين للاستمتاع بفرجها المفتوح، دعك جَسدها عشرات المرات، ركبت سيارته فى نهاية الليلة وذهبت إلى منزلها بالحى، حاملة الهدايا والطعام لأمها حتى لا تسألها عن تأخرها.

كانت نظراتها فى اليوم التالى كفيلة بتركى وحيدًا، قالت بتحدٍّ: "لم يعد بقلبى شيء بعد تقديمى لكل عابر سبيل "، رددت بقسوة: "كان يمكنكِ الرفض"، أجابت الطاهرة: "لم يلمسنى أحد، خيالك المريض لا يمكن علاجه"، بصقتْ فى وجهى، صفعتنى، وتركتنى وحيدًا بالشارع.

نادى النادل على زبائنه للمرة الأخيرة: "عايزين نقفل يا بهوات " ، فصحا" سلطان" من غفوته ليجد صديقه "موسى" بجواره يستمع لذكرياته عن امرأة عشقته وتركته وهو لا يزال سكران، قال بغضب: "أنت هنا من إمتى؟ "، رد موسى: "من أول الليل، حالتك لا تعجبنى ، أخاف عليك ، ليست نهاية الدنيا هجر امرأة، الدنيا مليئة بالنساء وأنت متزوج وتعرف منهن الكثير، بناقص "مريم " يا سيدى ".

نزلت الدموع من عينيه وقاما كآخر زبونين بالبار، بعد أن تركا بالإضافة إلى ثمن البيرة خمسة جنيهات للنادل ؛عرفانًا منهما على ذاكرته المفقودة التى تسمع كل يوم آلاف الحكايات وتلقيها بالزبالة، أخذه " موسى" من يديه وخرج للهواء الطلق، انسحبت السيارات من شوارع المدينة، لم يبق إلا اللصوص والضباط المدججون بالسلاح، أحسا بالخطر فوقفا على ناصية الشارع ، ونادا على أول "تاكسى" وقف أمامهما، قائلين بصوت عالٍ: "حى الشهداء يا أسطى ".

فوجئ بنفسه وحيدًا بالصباح ملقًى على أرضية السجادة بشقته، بعد أن ذهبت زوجته بأولاده إلى المدرسة، لم ينسَوا أن يغطوا جسده العارى، انسحب من تحت الغطاء، النهار يقترب من منتصفه، دخل الحمام ودون تناول الفطور، ارتدى ملابس جديدة ونزل الشارع.

جلس على مقهى الحى ليشرب الشاى البربرى والشيشة العتيقة، اتصل بصديقه "موسى "ليعتذر عن عدم حضوره للمكتب، اتفقا على المقابلة بالبار، ليلاً.

اقترب "سيد " النجار من مقعده، قائلاً: "تلعب عشرة طاولة ولا خلاص النسوان خلصت عليك يا عم " سلطان" ؟ "، أحضر القهوجى الطاولة واتفقا على ثمن المشاريب، دخل صراعًا رهيبًا مع "سيد" لساعات، ليدفع فى النهاية ثمن المشاريب !

استأذن الرواد ليلتقى صديقه، كانت ساعة الحائط تشير إلى العاشرة، انطلق طائرًا ليلحق بالترابيزة المحجوزة فى الركن البعيد، استقبله النادل بنظرات غريبة، فتيقن بأنه سمع حكاية الأمس، ومع ذلك قال مرحبًا: أحلى مزة " لسلطان" بيه "، رد بأسى: "هات نصف فن يا " سعيد"،

استغرب النادل، قائلاً: هنبتدى الليلة بفن، أمال هتخلص بإيه ؟"، خلينا فى البيرة الأول يا أستاذ "، أمام تحديه أحضر النادل الزجاجة والخيار والفول والحمص، فعادت صورة حبيبته تلاحقه.

قال لنفسه: " كسبت الرهان بتركك وحيدًا تستدعى رحيق زهورها المفقود، دخلت معركة غير متكافئة مع الحب فانتصرت النقية، طفحت مجارى الشر بممرات روحك، لتترك الحسرة فى قلب امرأة لم تقدم لك إلا الحب "، حضر "موسى " بعد وصوله إلى مرحلة بعيدة بأعماقه، فاستكمل دون الشعور بوجوده حكايات تعاطف الموظفين مع حبيبته بعد استغاثتها يوم حضور زوجته المكتب لتنهش كبدها، جرَّتها من شعرها، حاولت "تقليعها "البنطلون لتحرق "كلوتها "أمام الجميع .

دخل زملاؤه الحجرة ملبين نداء الفتاة البريئة ، تجمعوا على صراخها ، كادت " خديجة" تفترس قلبها وهى تركب مؤخرتها ، فضوا الاشتباك، أجلسوها على الكرسى، أحضروا كوب ماء لتشرب وتعود إلى روحها، سألوها: " أنتِ مين "، قالت: "مريم "، صرخت " خديجة": مريم الشرموطة اللى بتلف وراء الرجالة، الخطافة الوسخة اللى مش لاقية حد يلمها".

استكمل بأسى: "خر جسمها الناعم بدمائه الطاهرة على أرضية الحجرة، اتصلت المسكينة مستنجدة بشهامتى ، كعادتى تركتها لتختار وتقرر مصيرها بحرية، خرجت تلملم ما تبقى منها كامرأة ، دون أن تفهم ما يجرى حولها، قالت بأسف لزوجتى معتذرة: "حقك عليه يا حاجة! "، رمتها بالشبشب، لامس وجهها الطاهر، ردت عليها بحنق: "حاجَّة يا لامة ! دا أنا أصغر منك يا وسخة !".

نادى على " سعيد" النادل ليحضر المزيد من البيرة والفن مرحبًا بحضور صديقه وسأله على غفلة: "أنت فين ؟ "، رغم أنه لم يسمع إجابته، لرجوعه لمجارى ذكرياته، مستدعيًا طهر امرأة عاملها بدناءة، قائلاً لنفسه: " لم تتب البتول ، ضحكت فى اليوم التالى وهى تذكرنى بمشهد زوجتى التى قالت والغيظ يملأ قلبها: "يا مومس دا أنتى قد أمى !"، تفهمت فى النهاية رؤيتى بمنح الآخرين حرية الاختيار دون الضغط على إرادتهم، خلعت ملابسها كاملة بشقة صديقتها " زيزى "، وقالت: "سأفترسك يا واطى !"

استعاد إهانات زوجته المتكررة لحبيبته المفقودة وهو يتجرع الخمر ، قائلاً " دخلت عليها الشقة مرة ثانية مع أختها العاقر بينما البتول تنتظر حضورى، حاولا افتراس المسكينة، فاجأتهما

بسكين أخرجته من حقيبتها، قائلة بصوت صارخ: "اخرجوا يا نسوان يا غجر، حتى لا أقتلكم "، نحرت زوجتى، وهى تقول: "يا مرة اتلمى ، دا أنا مراته "، اتصلت زوجتى بى لأعينها على تحمل الصدمة ونفى الخبر الكاذب الذى أعلنته " مريم"، لكننى كعادتى لم أتدخل لتختارا مصيرهما، وتحققا رغبتهما بحرية.

تركتها شهورًا لإعلانها زواجنا، استكثرت عليها وقف الإهانة والدفاع عن نفسها، وسط معركة اغتيالها غير المتكافئة.

قررت التخلى عنها ، بعد ترك زوجتى الشقة والأولاد، وذهابها إلى منزل أختها العاقر ، لم يتحمل زوج أختها المسكين صراخ أختها المخبولة ، فمات تاركًا الدنيا دون أن ينجب منها أطفالاً يوقفون جنونها ! عاشت وحيدة مستمتعة بعملها وأثاث شقتها الجديدة، مقررة بلا وعى وهْبَ حياتها لخراب أى بيت عمران، أدخلتنى حبيبتى بورطة لم أعرف حدودها إلا بعد شهرين من ركوعى أمام زوجتى لتقبل توبتى، وتعود إلى دورها بالمطبخ والحمام لتغسل الملابس الداخلية للأولاد، فشلت بإعادتى إلى حضنها الدافئ لانشغالى بتصليح ما هدمته كذبتها المهينة لشموخى الوهمى وسط الحى.

صرخ " سلطان" من الألم الذى يفتك أمعاءه، حاول "موسى" مداواته بغسل وجهه، أحضر النادل كوبًا دافئًا من الماء ليشربه، لكن القيء الذى ملأ أرضية البار كان كفيلاً بطردهما للشارع، تأبط يد صديقه، والبرد يفتك بعظامه، وقفا بوسط الشارع ليوقفا "تاكسى " لكن منظرهما من بعيد، كان كفيلاً برفض السائقين ركوبهما ؛ خوفًا على الكنبة من بقايا رجل فقد كل ما فى جعبته بليلة شتوية حزينة .

فوجئ "موسى" بإغمائه ووقوعه على الأرض، لم يكن هناك بد من الاستعانة بسيارة أتباع العصابة التى تقف خلف البار لتحمى الرواد السكارى، لتنقل زميله إلى مستشفى عيون القصر ، لتطهير معدته من التسمم، حين شاهده دكتور الاستقبال قال بصوت عالٍ: "بليتوا البلد الله يقرفكوا"، طهّر بطنه من السبرتو المنتهى الصلاحية الذى تبيعه بارات وسط البلد ، قال صديقه بخفة: "ادعُ لنا بالتوبة يا دكتور"، أعطاه حقنة كبيرة لينام ، اطمأن " موسى" عليه، فتركه وعاد إلى بيته لينام على سريره ، مستمتعًا بالسقف الذى يجمعه بزوجته الشقراء وابنته الصغيرة " ليلى ".

حين عاد سلطان إلى الحى سمع أخبار حبيبته مذهولاً من ارتباطها بلص السيارات المعروف ، قال لنفسه بخسة: " الطيور على أشكالها تقع" .

"زواج الدعارة "

رغم خروج الفراشة من العلاقة مجروحة، فإنها عاشت شهورًا كحورية، اغتسلت من ذنوب " السلطان"، راضية بنصيبها، متأكدة بانتصارها على الأذى والشر، أدى انفصالها وهروبه بعيدًا إلى تسهيل ارتباطها "بيونس" ابن الحوت، أحست بالغبطة لاستعادة كرامتها لرغبة رجل جديد فى مرافقتها، تزايد اهتمامه بأنوثتها، فصدقت أن الله منَّ عليها بظل رجل، واعدها لمقابلتها خارج الحى، قابلته بكازينو الشجرة ليستمتعا بهواء النيل، طلب زواجها مراتٍ كثيرة، رفضت عرضه لمعرفتها بزواجه من أخرى.

ردد دعاوى كل الرجال بأنه لن يطلق زوجته ؛ خوفًا على أولاده من التشرد وليس طمعًا فى مص حلمتى صدرها، قال لتصدق أوهامه: " انفصلت عنها منذ سنوات، مقاطعًا جسدها، لم يخاطب لسانى لسانها، إلا لمتابعة الدروس وشراء ملابس العيد لأبنائى". قبلت وجوده رغم تهامس الجيران بسبب قسوة الوحدة كل ليلة. رغم مساعدة خالها لأمها، فإنها أصبحت ناضجة لتعلم أن عليها أن تعمل لتستكمل مصاريف البيت، رضخت قهرًا بوجود زوجة " يونس" الأخرى بحياته، ودخلت ممر الشاب المغرور بنفوذه وأموال أبيه، غير عابئة بالنهاية.

يعرفه الحى كابن للعائلة الكبيرة، وحيد أمه، تلبى طلباته دائمًا ، يمتلك والده أكبر معرض لبيع السيارات، يعيش حياته كما يتمنى الجيران ، ينام للظهر، يستمتع بالنساء والطعام والراحة المُورَّثة كسلسال المنزهين عن البشر.

حين استقبلها بالمعرض وهى تسأله عن عمل دخلت قلبه، فقال ببهجة: "أصدقائى أصحاب الشركات كثيرون، ستلتحقين بوظيفة لديهم كعربون محبة لامرأة تمكنت من روحى منذ النظرة الأولى "، يأخذها ليالى كثيرة لتتناول أشهى الأطعمة وتتسوق بالمولات والمحال الفخمة، وتشترى ما تشاء من ملابس داخلية، مدعيًا مرافقتها لمقابلة أحد أصدقائه لتعمل بشركته، ويعتذر كعادته لانشغالهم، تتساءل تائهة: "هل هناك شك فى عشقه بعد كل هذه الهدايا التى يقدمها لينال رضا قلبى ؟ وافقت على طلبه فى النهاية على مضض!

استأجر شقة بالقرب من المعرض بشوارع الحى البعيدة، وضع فى حجرتها الأسرّة والأنتريهات المستعملة، أجبرت "رحمة " على قبوله بعد تقطيع شرايين يديها، أقام بالشارع سرادقًا

صغيرًا، لبست فستان الفرح الأزرق، تأبطت يديه لتحجب شماتة العوانس، ارتدى بذلة الزفاف السوداء اللامعة، ليظهر كفأر حليق يخرج ببلله من السفينة الغارقة ، زغردت النساء وسط الشارع لأجمل عروسة تأخذ حقها من الدنيا، دلدلن أجسادهن من الشبابيك والبلكونات، قائلات "لرحمة ": ألف مبروك يا أم" زكريا ".

خطفها فى غفلة من الزمن، سافر بها إلى شاطئ بعيد، اختفى وسط قرية معزولة تحيطها الرمال، عاشت بأحضانه شهرًا كاملاً غير عابئة بهدم الماضى، تراكم بداخله حقد الزوجة الأولى التى تركها وحيدة تصرف على أبنائه من خير الجد الذى أُعجب بفجر ابنه الذى تمكن من معاشرة النساء ودهس قلوبهن بجرأة دون إحساس بوخز الضمير.

أغلق تليفونه ليلتهم جسد فتاة نقية، لم تقدم الدنيا لها إلا الفقد، تمكنت رغم قسوته من كشط الغل بداخله واستبداله بطهر شافٍ لروحه، بعد عودتهما إلى شقتهما بالحى لم يتحمل ابن الحوت المبيت ليلة واحدة معها، خرج ولم يعد إلا بعد أيام كثيرة، ليوبخها على فتح شباك الشقة الوحيد، فوجىء بها عندما تلفظت باسم" سلطان" حبيبها فى أثناء معاشرتها فى شهر العسل، استخدم براءتها وطهرها لتذكُّرها روح خليلها الغادر ليوقف الصرف عليها، تركها أيامًا وأسابيعَ دون طعام، يُحضر الأكل معه بالليالى التى يزورها بشقته ليركبها ككلبة، ويهرب فى الصباح دون أن يقول فى وجهها النضر: "صباح الخير".

خرجت للعمل بأحد مصانع الملابس المجاورة لشقتها بأجر يومى زهيد حتى لا تموت جوعًا، لم تقبل أن تمد يديها إلى معاش "رحمة " الصغير، خرجت لإعالة نفسها حتى لا تعايرها أمها و جيرانها بأنها الفاشلة.

حاولت كثيرًا أن تحسه على العدل، لكنه قد عزم على الطلاق بعد اكتشاف ضعفها ونطقها ساعة عشق باسم شبحها المفقود، يعلم أنها تتحمل قسوته ؛ لأنها ترفض كتابة "مطلقة" بهويتها الرسمية راضية بمصيرها الأغبر، لكن ابن الحوت لا يقبل الإهانة من جنس النساء، أحبك ليلته الأخيرة ببراعة ، دخل عليها بالكباب والكفتة وزجاجات البيرة، قائلا: "عرفت خطيئتى، لن أتركك أبدًا وحيدة، قاسيتِ كثيرًا فى حياتك، سأعوضك الحرمان ، سأطلق زوجتى الأخرى، لن أترك حضنك أبدًا ".

أشعل النيران وأعد الشيشة، أصر على أن تشاركه الطعام والشراب، ملأ الدخان الحجرة بطريقة أدت إلى فقدها الرؤية، فوجئت بحضور صديقه للاتفاق معه على عملهما الجديد، ناقشه فى أمور المعرض الذى ينويان فتحه بالصحراء من خلف ظهر والده.

اتفقا على شراء السيارات المسروقة من ورشة تتخصص فى تقطيع السيارات وبيعها كخردة، قال صديقه: " العصابة تغطى علينا وتحمى عملنا ، سنجنى الملايين من هذه التجارة الآمنة"، تحولت الشقة إلى سحب من الضباب ، طلب زوجها أن ترقص لهما على أنغام موسيقا صاخبة، وضع الشريط فى المسجل ، فانطلقت النغمات الراقصة، تمايلت بحب ابتهاجًا بعودة زوجها إلى أحضانها، معترفًا بحقوقها.

احتضنت رأسه، لامست شعره بحنية وعشق ، تحسس صدرها العارى، خلع ملابسه وانقض عليها وسط الدخان، غير عابئ برنات موبايله، ولا بالموسيقا التى لاتزال تدق ، ولا بالصديق المأخوذة بجنونه، جلس يتفرج عليهما شاربًا شيشته مستمتعًا بشبق امرأة لم تقدم لها الدنيا إلا الفضيحة مقابل إخلاصها الدائم.

دق باب الشقة فى أثناء انشغال " يونس" بالتهام ثديها، تركها عارية على الكنبة، ارتدى ملابسه سريعًا وفتح الباب، عاد مسرعًا إلى صديقه الضيف، قائلا: "ساعة وهرجع يا عرب متمشيش"، لم يرها مفتوحة الفخذين، كأنه لم يكن يعاشرها منذ دقائق، خرج مسرعًا مغلقًا الباب وراءه.

اقترب صديقه منها، تاركًا تليفونه المفتوح ليتغنى بموسيقا مزعجة ، اعتقدت أنه سيغطى عورتها، تحسسها وعيناه مملوءتان رغبة، قائلاً: "اعتبرينى زوجك "، لم تدرِ ما حدث، المخدر يسرى فى عروقها ليدفعها للاستمرار فى العشق الكاذب، انفصلت عن العالم، لا فرق بينهما، النور المضىء فوقها يزعجها، شاهدت "يونس" يصرخ قائلا: "يا شرموطة، أنت طالق، يا وسخة، لا يمكنك التوبة، تعاشرين أى رجل يقابلك، من الصبح تتركين الشقة، خسارة فيكِ حتى الحرق يا مومس"، لطمها على خديها الأيمن والأيسر دون أن يغطى فرجها العارى.

"السمك الصغير، تأكله الحيتان دون الإحساس بالتهام الروح، هل يمكن أن يقوم إبليس بأدوار أكثر إجرامًا من هؤلاء الرجال، مدعين حمل الأمانة ؟!" : هكذا قالت " مريم المجدلية " لنفسها يوم طلاقها، عادت وحيدة إلى شقة أمها تنتظر الرحمة، استمرت فى عملها رغم الصدمة

التى أجبرتها على الكتمان ؛ إذ كيف ستحكى عهر "يونس " وشريكه ؟ آمنت بحقها فى حجرة آمنة وظِل رجل يستحق رحيقها فبادلتها الدنيا الثمن.

استمرت فى عملها مع نساء المصنع لتتحدى القبح، انطلقت بينهن مجروحة تبحث عن ذرة كرامة بالحى الذى دفعها إلى الصمت، عاشت شهورًا طويلة مختفية بين الملابس، رغم ملاسنات صاحب المصنع والأسطوات على "فيديو " طلاقها، فإنها تمكنت بقوة من تجاوز فجرهم، تأتى فى موعدها فى الصباح للعمل بقسم التطريز دون أن ينطق فمها إلا لضرورات العمل، حرصت على ألا يمر أحدهم من أى خرم إبرة لروحها، تعلم أن رائحة جسدها تجذب الرجال دون معرفتها سببًا لذلك ، أصرت عامدة على البعد عن مجالهم، صادقت الكثير من زميلاتها وعرفت أخبارهن ، وساعدتهن بنصائحها لوقف إيذاء المتلصصين على أرواحهن.

ظلت شهورًا تداوى الجرح، دارت على فضيحة طلاقها صامتة، رغم ذلك رفع "يونس" القضايا عليها ليبتزها بنشر عهرها بالحى، مدعيًا تصويرها بالفيديو وهى تخونه مع أعز أصدقائه، ليضمن طلاقها دون تسليمها ملابسها الداخلية.

تتذكر يوم أن تركها عارية ليعاشرها شريكه ، أَحْبَكَ خطته مدعيًا امتطاء أصدقائه فرجها المفتوح، فى الأيام القليلة التى قضاها معها كان يصحو من النوم غاضبًا متصنعًا الشجار ليهرب إلى شقة زوجته الأخرى، معتذرًا بألفاظ فاجرة لزواجه من عاهرة، نفَّذ خطته ليحقق حلمه بالخيانة.

تحكى بحسرة عن أنصاف الرجال كأصنام بمعبدها، لم يتمكن أحدهم من الدخول إلى عالمها النقى ليستحقها، عاشوا فى كهوف مظلمة كعقولهم يبحثون عن رجولتهم بفرجها المكشوف.

تعرفت على محامٍ ليوقف أذى ابن الحوت، أرسلتها زميلتها إلى مكتبه بعد إعلان الحكاية بالمصنع لتثأر لكرامتها، استخدم ألاعيبه ليتركها طليقها بحالها، كشف نصْب أبيه الحوت أمام مكتب الضرائب والعمل والجمارك ومصلحة الشركات، فأوقف " يونس" الغل ضد امرأة مسالمة، رغم حلمها بالنوم فى حضن رجل يحميها ويغطى فرجها المكشوف، لكن الوقت فى هذا الزمن ملك للأشرار ، فلعب "سليمان " المحامى بعقلها، تمكن منها ذات ليلة غابرة بعد كشفها لبراءتها، وقف يترنح خلفها بمكتبه، مدعيًا أنه السبب فى كونها حرة، مدعيًا رجولته، بسبب عدم تقاضيه

باقى الأتعاب، أوقعها حظها العاثر بين يدى المحامى الذى يعرف أسراره الجميع، تعلم من زميلتها بالمصنع حكايات بيعه لمستندات موكليه، لكنها مَدِينة للص ؛ لفكه قيود الزوج الواطى من رقبتها.

وصل جبروته إلى استدعاء البوليس السياسى السرى وأجهزة العصابة المرعبة لينتقم من بعض أصدقائه، بعد وضع رسائل مجهولة بمنازلهم من أقاربهم الذين يعيشون خارج البلاد، كان سعيدًا وهو يحكى عن علاقاته وقدرته على هز أركان عرش أى منزل تطؤه قدماه.

وثقت بعمله لحلفه قَسَم خيانة الأمانة بالنقابة، فحكت فجيعتها منذ الولادة والتكوين واليقظة والانبهار لادعائه الشرف، حكت عن "رحمة "و "زكريا " و"سلطان" لتخفف آلامها، آملة فى حماية رجل عادل.

ذات ليلة لا تُنسى أخذها إلى مدينة بورسعيد الحرة ليشترى الملابس وقطع الغيار، متهربًا من الجمارك، طارحها الغرام سعيدًا بفندق تملكه امرأة تُدعى "بلقيس "، منهيًا إجراءات ترخيص مكتبها فى تسويق العطور، جلست بالفندق لتتعرف على خبايا المرأة ذات العينين المفتوحتين والقلب الجاف، تستقبل بمنزلها رواد المدينة ليعاشروا صبايا وفتيات صغيرات مقابل مئات الجنيهات، تمارس مهنتها الدائمة المعروفة بالمدينة الحرة كقديسة، حاولت بموافقة " سليمان" جرها لإحدى الحجرات فى الليلة الأخيرة، لتنام فى حضن رئيس العصابة، رفضت حيلتهما قائلة: "لست عاهرة يا قواد ".

جرها "سليمان " من شعرها على السرير ليغتصبها، تركته لتتخلص من آثام الدنيا ، أفجعها وهو يصرخ فوقها:"اعترفى يا "مجدلية "يا بتول، أيهما أحق بقلبك وروحك " سلطان " أم "يونس" أم "موسى " أم الزبائن الذين يملأون حقيبتك برزم النقود ؟ انطقى بأسماء عُشّاقك الكثيرين الذين أنكروك. كانت رائحته مقززة ، عادت من المدينة الحرة بشرخ كبير فى قلبها، أصرت على هجره والابتعاد عن شره، ظل يطاردها ليشركها فى فخاخه ونصبه على الموكلين، قررت نسيانه وحرق صفحته من أعماق روحها .

لولا مقابلتها للعم " سيد" الطيب الذى كان يشترى لأمها بالات الملابس ويعيد تصنيفها وغسيلها، لكانت "بلقيس" لفقت قضية دعارة لها وحبستها فى سجون العصابة السرية، بكت

بحضنه، طبطب عليها كابنته وأخذها من شارع السوق الذى هربت إليه، وقطع تذكرتين بالباص عائدًا بها إلى منزل الأم التى بكت على كتفه مرددة الدعاء له بحماية أبنائه ورد أفضاله الكثيرة.

أغلقت المسكينة تليفونها، هاجرت المقاهى أسابيع كثيرة، لتنسى قسوة عيون الجيران، بعد أيام طويلة خرجت من منزلها وحيدة، سارت فى شوارع المدينة، سمعت صراخ أمهات وصبايا أمام المحاكم، وهن يرددن : " الإفراج والحرية، لإخوتنا وأزواجنا "، دهشت لهتافاتهن القوية بالخلاص من قهر العصابة، تمنت أن تلتحق بجمعهن ، امتلأت سلالم المبنى بالثكالى والعاجزات، تمنت المجدلية الوصول إلى قلوبهن والهتاف معهن، أصبحت قريبة من النهاية رغم الماضى المشين وسفالات الرجال.

شاهدت على حين غرة لافتة مكتوبًا عليها " مطلوب آنسات حسنة المظهر للعمل بأجر مجزٍ" رغم سعادتها لكنها تذكرت هويتها التى تفضح بكارتها ، ترددت فى الدخول لعدم انطباق شروط العمل على امرأة ألقى زوجها عليها ساعة حقد يمين الطلاق .

"اللحم والمكياج"

ماذا كنا ننتظر من فتاة دهستها أقدام رجال الحى ، بالرغم من رقتها ورحيقها الفتان لم يتذكروا رائحة عرقها الطيبة وهم يتغذون عليه كالنحل، قائلين بخسة: "تؤدى دورها وعملها الدائم كمومس، لن ننتظر من ثديها سوى ضخ العسل ".

أكلوا قلبها فى اشتهاء غريب، استكثروا عليها إطلاق الرحيق الرائع فى قلوبهم القاسية، أنكروا عطاءها بدعوى رغبتها العارمة فى الطيران لنشر البهجة.

تمنوا تقديم شرفها مكسورة، ساجدة لكبريائهم المزيف، روت مجدهم الواهى لينمو كسند خلف ظهرها، تركوها دون خيارات تواجه مصيرها وحيدة، نعتوها بالغادرة لرفضها مرور طيبتها الشافية فى قلوبهم السوداء.

أى ظلمٍ تتحمله النساء النقيات وهن يقدمن الخير؟! أى قهر تتحمله قلوب الضحايا المخدوعات الرافضات العيش تحت سقف الكذب مرة ثانية ؟!

خرجت وحيدة من مجارى شرهم، تعلم سر خنوعهم ورفضهم رد الاعتبار لقامتها العالية، تحولت إلى امرأة ناضجة تفهم الخبايا بمجرد النظر وملامسة روحها نفوس الأحياء، ينطلق لسانها بالكلمات الصارمة دون موارية، عاشت شامخة مرفوعة الرأس كفراشة، آملة فى شم هواء جديد وإنتاج رحيق خلاب يبهر روح العالم.

تركت مصنع الملابس الجاهزة والتحقت بعمل آخر، أرسلته الآلهة بالصدفة لينير طريقها الجديد، دخلت على صاحب الشركة الذى كتب على بابها لافتة : " مطلوب آنسات حسنة المظهر بمرتب مغرٍ"دون أن تعطى أدنى اهتمام بهويتها كمطلقة ، أذهلت اللجنة بتلقائيتها ، وافقوا على عملها دون تردد، ليقول رئيسهم مرحبًا بوجودها: "أنت جزءٌ أصيل من شركتنا الوليدة !"

نزلت بعد المقابلة طائرة من الفرح، فتحت صفحة جديدة بقلبها وطوت الماضى، اتصلت بصديقة عمرها التى نستها أيام الجفاف، بلَّغتها بالخبر السار، ردت صديقتها بحب: "سوف نحتفل الليلة بميلادك ".

تعمل صديقتها بفندق الميدان الواقع بين الحى ووسط المدينة منذ سنوات، تمكنت لكونها فتاة قديرة بالحب أن تدير الفندق، اتصلت "ببوسى " صديقتهما الثالثة لتشاركهما البهجة، دخلن شقة " نعيم" بالدور العلوى، ناشرات عطر النساء المبدع، انتشى رفيقها بصحبتهن، استقبلهن كأخ ودود، قبَّل خدودهن علامة على البراح، عرَّفهن على صديق عمره "إسماعيل "، قائلا: "يلازمنى كطيفى، ويشاركنى حياتى مع "زيزى"".

ورث " نعيم"، وحيد أبيه الفندق والشقة، ليعيش فيهما كالملك، كاد يبيعهما فى يوم غابر، أنقذته "زينب" بإصرارها على تشغيل الصالة بطريقة مبدعة ، انطلقت كحورية مستمعة لأحزان الزبائن بقلب مملوء حبًّا، أحضرت الصبايا الباهرات ليقدمن أشهى الأطعمة والمشروبات، صادقت مئات الرواد، خصصت غرفتين للقاء الأحبة الراغبين فى الحب لساعات، آملة فى تحرير قيود الحوارى والأسر، اشتهر الفندق بروعته وبراحه، لحله مشكلة ارتفاع إيجارات السكن للعشَّاق، جلبت بحب بشرًا تمنَّوا الراحة لدقائق فى مكان ترفرف عليه روح امرأة خلاقة ، آمن "نعيم" بروعتها، تعلم منها حب الحياة، استعاد الفندق مجده، فأعلن ارتباط مصيره بطموحها، مقررًا مرافقتها للأبد.

ترجع علاقاتها القوية " بمريم" منذ أيام الدراسة بمدرسة مارى جرجس الابتدائية، لكن الحياة دفعت كلاً منهما إلى طريق مختلف، فالتحقت "زينب " بالفندق كعاملة تنظيف، وتمكنت فى النهاية من السيطرة على إدارته، لعشقها " لنعيم"، رافضة كتابته عقدًا شرعيًا يخلد علاقتهما.

عاشت بالحى وحيدة لوفاة أمها وانقطاع أخبار الأهل، ربتها زوجة أبيها على احترام أسرار الجيران وخصوصياتهم، أدركت بعد وفاة الأب مدى قوة وحب " إنصاف" زوجة أبيها، فخرجت للعمل بالفندق لتعينها على الحياة، وتعضد أواصر أسرتها، أعطتها "إنصاف " كل الحنان، لم تبخل عليها بالمودة حتى ماتت، بادلتها العطف والصفاء اللذين قدمتهما طفلة صغيرة لامرأة لم يعرف حضنها غير قلبها النقى.

ظلت مرتبطة " بمريم" كصديقتين ترغبان فى ملء فراغات أرواحهما بالحب، حالمتين بظل رجل يستحق أنوثتهما، تعرفت على " بوسى" من الفندق، حينما جاءت مع أحد أصدقائها للنوم فى غرفة العشق الرائعة ليوم واحد، تطورت علاقتهما حتى أصبحتا صديقتين تتمنيان شم رائحة الزهور الطيبة كل صباح، عاشت " بوسى" بالمدينة القريبة من الحى لعملها فى تجميل وجوه السيدات وأقدامهن بكوافير كبير، تتقاضى مبلغًا كبيرًا، يوفر لها حياة هنيئة ويساعدها على

تربية أختها الوحيدة التى تحلم بانتهاء دراستها ، تقول دائمًا " لزيزى" حالمة: حينما تفتح " نور" عيادتها، سأنام شهرًا بشقتنا غير عابئة بمكياجى أو تجميل الهوانم".

أدار " نعيم" التسجيل على أغنية وردة العذبة: "ومالوا"، ترك الفراشات الثلاث يختلين بأنفسهن لدقائق، جهز مع "إسماعيل" الطعام، غسلا الأطباق، قطّعا الخيار والجزر، احتفلوا جميعًا بعمل البتول الجديد كأنه عيد الفصح المجيد.

تناولوا عشاءهم بلذةٍ ومتعةٍ أسكرتهم، قال " نعيم" لصديقه: اتصل "بإبراهيم" ليستمتع معنا "، ردت "زيزى" بخبث: المجدلية من طينة أخرى يا أوباش، طيلة سنوات كثيرة أذهلتنا بعنادها لاجتياح الربيع "، نظر حبيبها بحب ناحيتها وقال بتحدٍّ: "خلينا نشوف".

يتدفأون ببعضهم كإخوة وأصدقاء، يداوون الجراح، يطيبون الخواطر المجروحة، استحقوا أن يعيشوا كملائكة لأيام كثيرة، تركوا حسابات الشارع والعمل والبيوت، رضوا بمصيرهم كأطهار منعمين بالرضا تحت سقف الأمان.

التحق "إبراهيم" بصحبتهم، محملا بأسطوانات وشرائط لملحنين وحفلات رقص مبهجة، خلبت موسيقاها عقول أهل الحى.

دخل مبهورًا بجمعهم السعيد، احتضن أصدقاءه كأخ، نظر مدهوشًا إلى وجوه الصبايا وشعورهن الوارفة، احتضن "بوسى" بحب، قائلاً: "ارفعى صوت الجزائرية قليلاً ، تدخّل "نعيم "، قائلاً: "مريم أم النور تعود للدنيا من غربتها الطويلة"، اقترب " نعيم" من المسجل، رافعًا الصوت، ناظرًا "إلى زيزى" التى عرفت ما يدور بخلده، أخذت شال صديقتها ولفته على ردفيها كملكة، تمايلت ضاحكة ، علامة على الامتنان لقلب حبيبها.

رفضت البتول الرقص رغم محاولات صديقتها لشدها للدائرة التى تتوسطهم جميعًا، انتشرت الضحكات والبهجة وسطهم، قطعت "بوسى" الضحك، بوضعها أسطوانة لراقصة باهرة ، انتشرت ألحان البهجة فوق سماء الفندق العالية، لتلقى على قلوبهم النور والأمل كالشمس وسط الظلام.

خلعت بلوزتها الرمادية، ألهبت قلوبهم لتنتعش كامرأة، مقررة السماح بدخول العشق المباح، قلدت الراقصات وهن يفجعن غريزة الرجال، ظهرت كامرأة مكتملة الحسن وسط الكون.

اضطرمت النار بأرواحهم، وضع "نعيم" يديه على كتف "زيزى"، مداعبًا شعرها المفرود، داخلاً بها دون استئذان حجرتها الوحيدة بالشقة الواسعة.

أعطى "إسماعيل" زجاجة بيرة للمجدلية، لمحت بعينيه الهيام، نظرت مختالة إلى الفراغ بفخر كامرأة، فعرف أن لوجوه البشر ألوانًا خادعة، قال بأدب: "ترقصى معانا "، ترددت بنت النور، فلحقته "بوسى" لتشبك يديه بأصابعها قبل أن يقع، أدخلته بجحيم النساء المبدع، لامس نهديها وردفيها كطائر يتعلم السير.

تبتعد وتقترب الفراشة، تلف حوله ليزداد حيرة بأمرها، احتضنها بحب، قائلا: "يا ملاكى الصغير"، وضع رأسه على صدرها العارى، فقالت " زيزى" ضاحكة: "اصحَ يا عم "إسماعيل"، بنات حى الشهداء يصعدن للقمر متيقظات !".

عاشرت "إسماعيل" مرات كثيرة فى أيام الجفاء، لتخفف آلامه باعتباره صديق نعيم المخلص، حينما تغلق "زيزى" مقهى الفندق فى الفجر ولا يبقى بالصالة إلا " نعيم" و"بوسى" فإنهم يقررون النوم مجتمعين حتى ظهر اليوم التالى، رغم معاشرتهما المستمرة فإنهما ارتضيا لعلاقتهما أن تنتصر على عمق الحب، ابتعدا عن الغوص فى أعماق النفوس البشرية السوداء، آملين فى تخفيف أوجاعهما.

يظهر "إسماعيل" فى الحى كعاطل، عمل سمسارًا لفترة قصيرة من عمره، وافق على اقتراح" نعيم" بالنهاية، ليؤجر المحل المغلق أسفل الفندق ليقدم الخدمات لرجال الأعمال، صاحب بعض المترددين على الفندق ليسهل إقامتهم بفنادق المدن الساحلية، توسط لتأجير الشقق المفروشة بالمدينة، صادق السائقين وتجار المخدرات والساقطات والقوادين، ليتمكن بخفة من القيام بتشغيل محله الذى أصبح ملاذًا للسائحين العرب.

جرت " بوسى" أمامه ضاحكة للمطبخ، دخل وراءها بقلبه الولهان، أحست برحيقه الصادق منطلقًا فى عينيها، أخذته فى حضنها، نشرت عطرها الشافى بروحه، سجد بمحرابها

ليعرف قدسية النساء البتولات وقدرهن، اغترف من شفتيها بحور الحب فوق كنبة المطبخ الضيقة.

تحدث "إبراهيم" بأدب مع المجدلية عن أعماله وشركاته وعلاقاته بالفنانين، لم يقطع حديثهما سوى الصَّرْخات والتأوهات الصادرة من قلوب العذارى بالمطبخ والحجرة الوحيدة بالشقة.

نظرت إلى عينيه، اكتشفت اختياره لطريق الحساب والعقاب، فقالت بهدوء لتفجعه: "احتفالى الليلة معكم يفوق مال الدنيا، اختارونى لأدير شركة تأمل النجاح بنشر فروعها الجديدة بالبلاد، لبيع المنتج الأصلى لمسحوق النساء الخلاب، أحتفل بعرسى وعودتى، غارقة برحيق الود مع صديقتى ".

اقترب محاولاً تلمس دفء صوتها، نظرت إلى عينيه ليقترب أكثر، أعطته الأمان، تحسّس وجهها بأصابعه الرقيقة، أدخلها بشعرها، تجولت أطراف أصابعه على رقبتها، تحسس نهديها البريئين، أحس بالأمان، فاقترب أكثر ليدخل مجالها الباهر.

تفككت أزرار ملابسهما، شّبكا أيديهما وألسنتهما، اصطكت الأسنان معربة عن قبول التعارف، تبادلا الأحضان والقبلات، نست المجدلية من جديد عهر الحبيب والزوج، مدعين حمل الأمانة، تركت اللجام ليركب تاجر اللحوم حصانه العربى الأصيل ويطير محلقًا بالسماء.

يفوح جسدها بعطر البنفسج، أدفأها رغم عقله المشغول بالأموال، سرحت يداه خلف شعرها وأذنيها، انطلقت باحثة بين نهديها عن السعادة، تسرسبت لسرتها، انسحبت لسقف فرجها، لامس عضوها الأنثوى، ارتعشت قائلة ببهجة: "لازم أمشى حالاً"، عادت صديقتها لإثنائها عن الخروج، خرجت سعيدة تاركة الحب، لتعود وحيدة إلى منزل أمها "رحمة ".

كانت فخورة بتفتحها الجديد، شعرت كثيرًا باليأس بعد نكران حبيبها، آمنت بطهرها ووثقت بنفسها فسارت مختالة بحوارى الحى كملكة مكتملة الحسن، رافعة رأسها بشموخ غير عابئة بنظرات الجيران، شاكرة رب العرش لعطائه الدائم دون حساب لعباده الممتنين.

استرجعت مشهد "زيزى" ودخان الشيشة الخارج من بين شفتيها ليدهش الدنيا، يخلب العقول جسدها النضر المفتوح بمسامات خديها وأذنيها وأنفها وتحت عينيها ويديها العاريتين، فيظهر صدرها النافر وردفاها الممتلئان كأنهما ثمار أشجار الكمثرى الطازجة.

من يتمكن من حضنك يا "زيزى" سوى "نعيم"؟ يستمتع بضحكتها الصافية العالية، يلامس أجزاء جسدها برغبة عارمة لامرأة قوية صبورة، تعلم كيف ينصهر الحديد بين أحضانها.

جرى المشهد سريعًا بعقلها وهى تقترب من منزلها، تمنت أن تحصل على "نعيم" آخر ليفتح مسامات جسدها ويطهر جروحها، ويشرب من بئر أنوثتها الرائعة، وينام بقلبها مسالمًا، منتظرًا الأمل برضا الحبيبة.

دخلت الشقة غير عابئة بتعليقات رواد المقهى، فوجئت بوجود خالها، قال بحب: "الهانم تتأخر كل يوم بدون رقيب"، احتضنته قائلة: "التحقت اليوم بعمل جديد، تأهلت كمديرة بمرتب كبير بشركة لبيع العطور وأدوات التجميل ".

قال ليدعم سعادتها: "طبعًا "زيزى"، صاحبة الحظ التى رقصت بفرحك الليلة"، ردت بخبث: "لا يخفى عليك شىء يا "يوسف!".

ينام خالها بعد عودته من دكانه بالشارع الخلفى عندهم ؛ ليؤنس وحدة أخته وأبنائها ، أصبح صديق "مريم" الودود بعد حرمانه الخلفة، تحكى له عن علاقاتها دون خجل ليقينها بإخلاصه، يقول بعد نهاية كل علاقة ليواسيها: "البتول "لا يقدر عليها الرجال المخنثون!"، يثنى دائمًا عليها بقوله: "الموجوعة ؛ تملك بهجة العالم ".

حقدت زوجته على أخته وأبنائها، تتمنى الموت لهم ؛ لتظليله عليهم وتأمين منزلهم أكثر من الاهتمام بإطعامها، قال ببهجة "لرحمة": "قطّعى التورتة لست العرايس، لنحتفل بقمر حياتنا "مريم" أم النور".

نشر الفرح بالحجرات الضيقة، ارتفعت ضحكاتهم المبهجة تنير الحارة المظلمة، أدار المسجل على صوت المغنية التى تغنى لأخيها تاج رأسها وزينة الشباب، ليديم طلته على منزلها، لتفتخر أمها بابن "السرة " الوحيد الذى لولا إياه لأكل البشر لحمها.

عاش خالها مع أخته كأبناء أطهار بالحى، لأب عمل بهيئة سكة الحديد أكثر من أربعين عامًا، حضر من قرية بعيدة واستقر بالحى بعد تزوجه من قريبة له بالمدينة، صانها وحافظ عليها وافتخر بأنها لم تخرج للشارع إلا مرات معدودة فى حياتها الطويلة، بعد عدة أشهر توفت بعده ؛ حزنًا على فراقه، ترك الأب معاشًا ساعد " رحمة" فى الصرف على منزلها، رغم علاقات أخيها مع نساء الحى وفتياته، تتحمله محاسن التى تزوجها بشقة والده، تغيرت حياته بعد معرفته بعدم قدرتها على الإنجاب، كان يقول بحزن لأخته: " لن يبقى لأسرتنا أثر بعد رحيلنا "، بحث كثيرًا عن أعمامه بالبلدة البعيدة، تجاهلوا حبه ومودته ليقينهم بطمعه فى ميراث الأب بالمنزل المشترك، قاموا بتغيير معالمه ليفقد أى أثر لماضٍ شارك فى صنعه.

لم يعد لهما فى الحياة سوى بعضهما، يبكى بحزن حينما يذكره أحد بضرورة إنجابه، يسخر من الجميع بقوله: "رزقنى الله بابنة جميلة تُسمَّى " مريم" ، وطفل طيب اسمه" زكريا"، لا أحتاج مزيدًا من الأطفال "، يحترم زوجته " محاسن" الطيبة، رغم اتهامها له بمعاشرته لنساء الحى العوانس.

أضحت علاقته بزوجته التى رضيت بعلاقته سرًّا غامضًا ؛ لكن " رحمة" التى حرمتها الدنيا كل شىء، لم تتمكن من تطييب خاطر زوجته التى يرافق عليها بعض نساء الحى، دائمًا توبخ أخاها لارتباطه بعاقر، جلبت له العديد من النساء ليتزوجهن ؛ كى يرزقه الله بالذرية الصالحة، يقول دائمًا معاتبًا: " اخترت طريقى ولن أتراجع عنه، أولادى " مريم" و "زكريا".

عاش حياته كأمير لمعرفته أسرار النساء والفتيات اللاتى يفصلن ملابسهن بمحله. نسوا أحزانهم وغنوا مع خالهم حتى الفجر، ناموا بالشقة كأبناء الله الطيبين لخلو أرواحهم من الشر والحقد.

عاد الابتسام إلى منزل " رحمة" بعد عمل ابنتها بشركة العطور والمكياج، ساهمت خبراتها بالبيع والشراء بالدكان المغلق ودراستها لعلم الإدارة فى تطوير علاقات الشركة بمندوبيها وبالمحال والكوافيرات المنتشرة بالمدينة، عملت بإخلاص متناهٍ لتذهل الموظفين وصاحب الشركة بإبداعها فى جلب زبائن جدد، رتبت ببراعة ملفات البيع والشراء على جهازها لتتمكن من معرفة كل معوقات التسوق، قدمت طرقًا باهرة لتتخطى العقبات لتتزايد أرباح الشركة بشكل فاق دراسة الجدوى لإيمان البتول بالعمل المقترن بالحب.

تفوقت على نفسها، حفظت خبايا وأسرار المهنة بعقلها الصغير ، تأخذ الموقف والقرار الصائب دائمًا، ليكسب صاحب الشركة المال والنجاح، تاركًا الشماتة والحقد من موظفين فاشلين على إبداع فتاة بمعرفة أماكن التسويق رغم مكوثها بالمكتب طوال الوقت.

لكن شكوى إحدى السيدات بمصلحة الغش التجارى ؛ لفقدها النظر بسبب "الإيلينر " الذى تضعه النساء لتوسيع عيونهن، أوقف طموحها، خاصة بعد تحقيق هيئة الغش التجارى وأخذ عينات من العطور والمكياجات، لتثبت صحة النتيجة.

حينما طالبها صاحب الشركة بإعادة توزيع المنتج نفسه لرشوة الموظفين بالمصلحة وحفظ الشكوى ، أحست بانقباض روحها لحمايته من جنرالات العصابة بسبب علاقات النسب والمصاهرة، خفت انطلاقها المتجدد وأحست بالغثيان ؛ إذ كيف تبيع للناس مبيداتٍ وموادَّ كيماوية حارقة كأدوات للزينة والتجميل، حينما أبدت امتعاضها وطلبت وقف تسويق منتجات مضروبة، قال المدير مستهزئًا: "البضاعة كلها مغشوشة، الفرق فقط فى هامش الربح ".

اكتشف براعتها فخاف على غلق شركته، نقلها من قسم المبيعات مدعيًا قلة خبرتها، لتعيد إنتاج نفسها كل يوم دون أمل، اختفى الإبداع ليدهس الملل روحها، غيرت المجدلية مكان مكتبها وكرسيها، أعادت ترتيب الملفات لتجدد روحها، يزوم زملاؤها لفقدهم إبداع امرأة ساهمت فى تزايد أرباحهم، كسبوا من وراء جهدها وتفانيها الأرباح التى فاقت مرتباتهم، فجأة أنكروا كل ذلك، وأداروا بخسة المكائد حول ظهرها ليظهروها كعشيقة للمدير، قالوا كيف لامرأة أن تنجح فى التحليق الدائم دون أن يوقف طيرانها أحد، إلا إذا كانت خليلة صاحب العمل ؟!

أصبحت الموضوع المفضل لقتل الوقت وملء الفراغ داخل نفوسهم السوداء، عمل المدير بحنكة ليطردها من العمل بالتضييق على حريتها، لم يغفر عند زملائها إخلاصها، باتوا ينظرون بخسة لجسدها كمومس.

لم يتبق فى حياتها إلا فندق "نعيم"، تزوره يوميًا بعد العمل، تجلس بالمقاعد المطلة على الميدان، تدخن الشيشة مع "الكابيتشينو"، تحكى "لزيزى" عن زوجة المدير أخت أحد أفراد العصابة التى لا يكفيها عملها المتواصل دون زيادة راتبها، يتهامس زملاؤها على نضارتها الرائعة محاولين فهم سر عطرها الفتَّان الذى يخلب عقول الزبائن، أطلقوا الشائعات وصدقوها، تخيلوها بعلاقات كثيرة مذهلة، لينعموا بالحرمان الذى ملأ الله به قلوبهم.

عادت من العمل للفندق بعد اتصالها "بزيزى" بدعوى قبضة مفاجئة دهست روحها، أيقنت "زيزى" بأنها تحتاج قرابين "إبراهيم" ليطهر قلبها من الدنس.

أعطتهما مفتاح الشقة، لينفرد بأم النور ويقوم بدوره المنتظر كمخلِّص، جهز النار والشيشة لتنفصل عن العالم وتنسى وجوه المتلصصين على أنوثتها ونعتها بالفاجرة ؛ لرفضها المشاركة بغش مساحيق تجميل النساء.

تدخن الشيشة كأمل أخير للنجاة، يمر الدخان بين شفتيها المفتوحتين فى رغبة وشبق، ألهبا نار صاحب شركة الأسطوانات واللحوم المستوردة، انفصلت عن الدنيا، قائلة "لإبراهيم": "أنت كنت فين؟" أجاب بحنان كابن مقدس: "عندى سفر كثير ، يجب ملء السوق باللحوم، يستطعم الناس هذه الأيام الأكل الملوث الذى يستورده خصومى، جنون البقر والخنازير والطيور ورشوة الموظفين يهددنى بالإفلاس"، لكنه لم يقل إن شركته المحمية من الجنرالات هى التى فتحت الباب لرشوة أطباء الحجر الصحى، ليسمحوا بدخول أغذية منتهية الصلاحية، تتراكم أمواله المغسولة بالأفلام والأغانى والأسطوانات لفنانات خليعات بعد تحويله إلى حساب الجنرالات ثمن حمايته، أدار الشركتين بمهارة عجيبة، لم تفهم قط سر ارتباط الأفلام الهابطة باللحوم الفاسدة ليديرهما باقتدار متواصل، هللت له وسائل الإعلام باعتباره رجل المرحلة، رغم الضجة الإعلامية التى أثيرت حول موت بعض أطفال المدارس، بسبب صفقة أغذية فاسدة وردها للوزارة، لكنه تمكن من خلال علاقاته بالعصابة من الحصول على البراءة وشهادة الأيزو فى استيراد الطعام النظيف.

لم تهتم المجدلية بزواجه بأكثر من امرأة لادعائه بأن وراء ذلك تعدد المصالح وتربية الأطفال.

أدى حديثه إلى مزيد من انقباض الروح، فقالت مستاءة: "اترك اللحم المجمد وادخل نهر حبى قبل غرقى، ألا تحس بقلبى يناديك "؟ غير الحَجَر للملكة صامتًا، هفهف على النار ليشعلها، تذكر مهنة والده كنجار وصانع حجرات النوم لأهل الحى، استعاد رائحة نُشارة الخشب وهو يدق المسامير بضلف الدواليب، غير شريط الكاسيت لينشر نغمات العشق المذهلة حول البتول، تحسس يديها برقة، لف شالها الحرير حول ردفيها لترقص ناسية حكايته ولحومه وحقد زملائها وأصدقائها الذين بادلوا حبها بالغدر.

قالت بشبق: "اسندنى هقع"، حملها كالفراشة، داخلاً بها حجرة البهجة المفتوحة، تحسس قميصها البرتقالى اللامع، سحب كلوتها الأحمر الشفاف، ليمتلك كفه فرجها العارى، دخلت يداه برقة وعذوبة بين صدرها ليملأها بالرغبة، خلع ملابسه دون أن يدرى، أصبح عاريًا، تحسست جسده الناعم كحورية، ساعدها لتتعرى كأميرة، قبلها كحورية بجنة رضوان، فامتلأ قلبه بمخلوط العشق.

صرخت بشبق: "أنت فين ؟"، لم يرد، عاقت حلمتا ثديها لسانه عن النطق، فالتهم رحيق الشهد من استدارتهما البريئة، صرخت متأوهة، مغردة بحب: "براحة شوية، حد يسمعنا ".

تحسست جسده الناعم، لحسته بفمها، قذف مرات كثيرة بين نهدها وفرجها كالمجنون، أضرم النار بفؤادها المتعفف، عاشرها كرجل يحترم أنوثتها وحقها كامرأة، امتص عذابات حياتها بيديه الناعمتين، تحسس ردفيها لتصرخ من النشوة: "براحة شوية يخرب بيت أمك"، يدخل قضيبه المنتصب لجنتها برقة ، ليطفئ نارها الملتهبة.

مرت ليلة عرسها الجديدة بنجاح، اجتازت المرحلة بأمان، سخرت من إشاعات ونميمة الموظفين فى الأيام التالية، عاشرته مرات كثيرة بمملكة " زيزى"، أدمن الخليل رائحتها رغم تجارته باللحوم الفاسدة، لم تهتم بماله بقدر اختيارها رجلاً يقدر أنوثتها المتفجرة، ويحترم مسمّات جسدها المفتوح، ملبيًا رغبتها العارمة فى النسيان، أصبح رفيقًا جديدًا مختلفًا عن كل الرجال الذين عرفتهم، تساءل كثيرًا مع نفسه ليفهم سر المخزون الذى تمتلكه هذه المرأة، بنشرها السعادة فى قلوب البشر دون مقابل.

الشيء المدهش أن روح " سلطان" كانت تداعبها وهى بأحضانه ليذكرها بالليالى الأولى بفندق القرية المسحورة الذى شاهد فض غشاء بكارتها، تناست خسة "يونس" وأحضان كل العشاق الذين عاملوها كمومس، تجاهلت عن عمد نظرات الموظفين وتهامسهم على نضارتها وعلاقاتها الطيبة بكل العابرين بمبنى الشركة.

تأكدت اليوم بعد نمو علاقتها بخليلها أنها امرأة تستحق أن تعيش وسط الحى دون نكران، ملأت منزل "رحمة" بالفرح، دخلت مع أخيها دور السينما، سارت بالحدائق العامة لتؤنس

وحدة زكريا الطيب، احتفلت مع خالها الرائع وأمها بأعياد الميلاد والربيع، رفضت الأم فتح الدكان مرة أخرى، رغم أفكار خالها المتجددة لإعادة الحياة والهواء لأركانه المغلقة.

قالت لأمها : " غدًا سأزور " سماح" ، بكت الأم لمعرفتها بالخبر الشائع بالحى برفض والدها الشيخ " رشدى" زواجها من الشاب " فالح" صاحب القلب الطاهر ، فقالت لابنتها : " لما يجى بكره نبقى نشوف ، للأيام رب ينظمها" .

تلذذت " رحمة" وهى تأكل اللحم المستورد الذى أحضرته "مريم" من شركة "إبراهيم"، قائلة:" إنها أطعم شرائح لحم تذوقتها فى حياتى" !

"ذاكرة المصحة"

يخلق الله لكل إنسان قرينًا يحن له، يحكى له أسراره دون خوف، فاتحًا قلبه دون مواربة، يناكفه رافضًا عصيانه، يرشده نحو طريقه ، هكذا كانت سماح جارة "مريم"، المخلصة لصديقة عمرها والذي أدى صوتها الخفى إلى إرجاعها دائمًا لطريق الصواب قبل غرقها فى قاع الظلام.

أَحيطت علاقاتهما بسرية غريبة، تعرف خبايا روح البتول، تفهم غضبها الدائم واحتياجها للاعتراف بعالم موبوء بنكران العطاء.

أضحت رؤيتها كالأمل بالنسبة إلى المجدلية، ظل منزلها بالحى المكان الوحيد لتلمس طريق الهدى، لتفادى الوقوع بالخطيئة، كلّما حلت مصيبة جديدة جرت مسرعة لحضن قرينتها، تبتسم الطاهرة فى وجهها غير عابئة بالحكاية، وتقول لتقويها: "أنت مازلتِ موجودة، فليذهبوا للجحيم بشرِّهم وأذاهم".

عاملها والد "سماح " الشيخ " رشدى " كابنته، يسأل عن طبيعة عملها، استدانت "رحمة " الأموال منه وأعادتها سريعًا، خوفًا على ماء الوجه من الانسياب، يقدر ظروفها بعد وفاة الزوج وغلق الدكان، يحترمها لتحريمها الرجال على فرجها الظمآن، وتفرغها لتربية طفليها، ورغم خلاف الشيخ مع والدها حول نشاط الدكان الكائن بمنزله لرفضه بيع الملابس الداخلية للنساء ، وتعليقه مشدات الصدر وقمصان النوم على أبوابه ، لكنه لم يقحم " مريم" وابنته فى تلك الخلافات التى أدت فى النهاية إلى مقتل " المصرى" .

تطبخ أم "سماح" أشهى الأطعمة، مبتهجة بزيارة "مريم لابنتها، تملأ الحجرة حياة وهى تدق الباب المغلق لتوقف همس الملائكة، قائلة بحب: "بتتودودوا على مين يا نسَنيس ؟"

ارتبطت أرواحهما بحبل متين، تعبيرًا عن التواصل المذهل بين القلوب، أفصحت لقرينتها عن خوفها من تلصص زملائها على مفاتنها، وعددت المشاهد المؤذية لعيون الرجال الذين حاولوا اغتصابها وجرحوها، ووصفت "سماح " هيامها الكاذب "بسلطان " كالأمل الواهى، ورفضت زواجها من " يونس" الخائن لدمائه الموروثة عن والده الحوت، عنفتها لعلاقتها "بإبراهيم"

تاجر اللحوم لعدم إيمانه بالحب، مدتها بالقوة لمواجهة عيون الرجال بأماكن العمل والشارع الراغبين فى تدنيس روحها.

داعبتها ساخرة من حلمها بالعمل كمخرجة بمسرح العرائس، قائلة: " عشتِ عروضًا كثيرة بالحياة، أبطالها رجال عاشرتيهم كقديسة، دخلتِ قلوبهم وعرفتِ أسرارهم أثناء قيامهم بأدوار البهلوانات وهم يتهتهون كذبًا لإشباع غرائزهم ".

حكت عن صوت العصافير والقطار وألوان البيوت والشجر، لتؤكد إيمانها بالاستمتاع بنعم الرب، دون تردد أو عتاب، تقول الحورية ذات القلب الواسع المملوء زهورًا بيضاء تعليقًا على نهاية العلاقات الفاشلة " لمريم": "لا يهمكِ أى رجل أو امرأة، أنت ما زلتِ حية ".

فى يوم مؤسف لم تخرج شمسه، أظلمت حوارى حى الشهداء وطرقه، تلقت "مريم" الخبر: "سماح" ماتت، قالتها "رحمة" فى وجهها دون مقدمات وهى عائدة من عملها حزينة.

ردت بجنون: "اخرسى، أيمكن أن ينطق لسانك بالكذب يا أمي" ؟ اقتربت " رحمة" من "البتول " تلملم صدمة المحرومة من الرؤية، واعية بحجم النار التى أشعلتها بقلبها، أخذتها بحضنها، قائلة: "يا بنتى، الموت مكتوب علينا، محدش هيخلد".

امتلأ الشارع نساءً متشحاتٍ بالسواد، يُعَدِّدن ميزات المفقودة البريئة التى لم تدخل دنيا الرجال، أغلق والدها الشارع بصوان كبير، ظل سبعة أيام يستقبل شيوخًا وأفندية من بلاد بعيدة، ذُهل أهل الحى من آلاف البشر المعزين، ومن قوة تحمُّل الشيخ " رشدى" الذى لم تغفل عينه طوال فترة الحداد.

رغم تودده لأهالى الحى والعيش بينهم كواحد منهم، فإنهم شعروا بأنه رجل مرموق؛ نظرًا لفخامة السيارات التى جاء بها أنصاره من البلاد البعيدة. أحاطت أشجار الكافور والصفصاف العريقة الممتدة بجذورها فى الزمن منزله المطل على الميدان الواسع بالحى ، فظهر كقصر مخصص للاستشفاء، لم يعرف أحد مصدر دخله، رغم لحيته الطويلة وتمتعه بصحة وعِيشة كريمة، فإن الجميع لم يفهم سبب موت ابنته الوحيدة.

بهرت " سماح" الجيران برصانتها وشموخها كفتاة ناضجة، أشاعت بعض الفتيات بانتحارها ؛ بسبب رفض أبيها زواجها من " فالح" الذى لم يحدثها إلا مرة واحدة أمام منزلها، بعد تحسسه طهرها وطيبتها، وتيقنه بأنها قرينة روحه، تحدث مع والدها بالمساء ليسمح له بالارتباط بابنته ، فرفض عرضه، لقبوله زواجها من ابن شيخ المشايخ بالمدينة القريبة، سمع الجيران صرخات المحرومة من حنان الأب قبل انتحارها بيوم واحد، لكن الشيخ قوى النفوذ، تمكن من دفن السر ، وأخذ العزاء أمام منزله الكبير.

حين دخلت "مريم" لترى جثة قرينتها، صرخت فى حضنها لتعود، بكت الأم كثيرًا فى حضن البتول، وأصيبت بالشلل بعد حرمانها شريان الحياة الوحيد، دخلتا غيبوبة طويلة، نقلوهما إلى مستشفى المدينة حتى انتهاء مراسم الدفن والعزاء.

عادت مريم إلى منزل أمها، رافضة رؤية الجيران، ذهبت إلى عملها بعد أسبوع، لنسيان قهر الروح، تعرفت على المكتب بصعوبة، لم ترد على استفسارات زملائها، غابت بأحزانها بعيدًا عن عيونهم المندهشة، انطفأت المجدلية وسط دهشة الموظفين.

استأذنت خارجة من المكتب، ركبت الباص عائدة إلى منزلها، نزلت المحطة الأخيرة فى مكان لم ترَ مبانيه أو محاله من قبل، فقدت سر اختلاف ملامح البشر ونوع الكائنات وأشكالها وألوانها.

جلست وحيدة على الرصيف تتأمل الفراغ الرهيب بالكون ، خطف أحد الصبية حقيبتها دون مقاومة تذكر، فضاعت هويتها، رفضت الجرى وراءه للحاق به أو حتى الصراخ ليعيد المارة بطاقتها وحقيبتها، أظلم الليل فى شوارع منطقة تؤوى وجوهًا بشرية غريبة، سارت وحيدة تتلمس قدماها حُفر الحوارى، أوقفها رجل ضخم أمام مقهى وسألها: "أنت مين ورايحة فين "؟، بكت صامتة، سحبها من يديها، نادى على زوجته لتأخذها بحضنها فى منزلهما، أخذتها المرأة لشقتها، أطعمتها الأرغفة ، حاولا معرفة عنوان منزلها أو أسماء أهلها، لكن المجدلية فاقدة الذاكرة، ردت على أسئلتهما بدهشة : "معرفش حاجة خالص".

عاشت أسابيع بمنزل الحاجة "بهيجة "والشيخ "مرزوق"، حتى نشر خالها سر اختفائها بالتلفاز، اتصل الشيخ بأمها التى نزفت عيناها الدماء لحرمانها نور عينها، عادت إلى أحضان " رحمة" وحيدة، لم تتعرف على أحد من شارعها أو أقاربها، شاهدتهم كأغراب كأول مرة بحياتها،

زارها "إبراهيم" و"زيزى" و"بوسى" و"نعيم"، محاولين إعادة روحها ونضارتها، أبت ألا تعود، لفقدها روح حياتها وقرينتها الأمينة "سماح".

أحست بحياد "إبراهيم" صاحب شركة اللحوم وابن نجار الموبيليا، مبحلقًا فى وجهها، مدهوشًا من جثة امرأة ضاع رحيقها وحواسها بفعل الذهول، سمعته رغم فقد الذاكرة يقول ساخرًا: "يا حول الله، فقدنا فتاة قوية ملأ نورها الدنيا !".

استجابت "بوسى" لحسرته، قائلة: "لا تخف فأنا دائمًا موجودة لألبى رغبات المحتاجين".

تأكدت من إحساسها الذى أخفته كثيرًا تجاه تاجر اللحوم، علمت بصدق مشاعرها رغم النسيان؛ إذ لا يجوز الاتجار فى اللحوم والموسيقا إلا لابن خطيئة.

فجأة تذكرته بدكان والده النجار، رافعًا ألواح الخشب فوق المخرطة ووجهه يمتلئ بغبار نُشارة الخشب، شاهدت والده الطيب "حسان " وهو يقرص أذنيه لخلعه يد الشاكوش، نزلت دموعه الكاذبة ، فتأكد من خسته ، فألقى الأب بالسيخ الحديد فى وجهه ليجرح فمه، حين نزف الدم على ملابسه، طرده " حسان" من الورشة، قائلاً: "لا تدخلها أبدًا يا قواد ".

تمنت أن تعود قوية لتواجههم باستثناء "نعيم" الذى تحسَّس جبينها كأخ، نظرت متهالكة إلى الجميع فعاد فقدان الذاكرة لإحساسها مرة أخرى، نظرت إلى "زيزى" قائلة ببراءة :"أنتو مين؟".

اتفقت "رحمة" مع خالها بضرورة إبلاغ "سلطان " بالخبر، التقى "يوسف " بالحبيب على ناصية الحارة، قائلا بأسى: "مريم" بتموت، هرول " سلطان" إلى منزلها وعلامات الدهشة تملأ وجهه، معتقدًا رؤية جسد مهترئ لامرأة ادَّعت دومًا الامتلاء بالأنوثة والنقاء، جاء متلهفًا غير مصدق ضياع ذاكرتها ؛ إذ كيف للبتول أن تفقد الروح؟ حضر، آملاً فى كسب الرهان.

حين شاهدته صرخت بقوة: "اخرج بره...اخرج يا مجرم، لم يعد بقلبى مكان لظلمك"، صرخت بهستيريا لتعيده إلى سلالم المنزل وسط بكاء الأم والخال و"زكريا" المسكين ، بكت بحرقة بحضن أمها وهى عائدة إليهم، تدفقت الأحداث على سطح ذاكرتها من عمقها لتستعيد كل ما فات.

شاهدت جثة والدها " المصرى" غارقة فى الدماء وسط محله الذى يقع بمنزل الشيخ ، تذكرت صوته الحنون وهو يحتضنها فى نزعه الأخير ، ليحذرها من مكر صاحب البيت ، فهمت بأن اختلافهما على نشاط المحل كان السبب فى قيام أنصار الشيخ بالاستفراد بوالدها وقتله بالسيوف وسط مشدات وقمصان نوم النساء الفاتحة ، قائلاً لابنته فى وصيته الأخيرة : " أخوكِ أمانة ، انشرى البهجة ولا تهابى أحدًا ، الحى ملكنا ، حاذرى مكر " رشدى" ، ولا تسلمى المحل لأنصاره أبدًا " .

صحت من نومها بعد أيام كثيرة مملوءة بالعزيمة، قائلة بثقة لخالها وأمها: "سأنزل وحدى "، بكت الأم خوفًا على ابنتها، تركها الخال متسائلاً: "هل تخرجين وحدك وتعودين؟

خرجت للشارع لتكتشف أماكن الورش ووجوه الصبية والمحال ورواد المقاهى الذين أكلوا من لحمها العارى دون إحساس بالسُّحق.

سارت وحيدة تستعيد وجوههم وروائحتهم، عادت أرواحهم من العمق، تذكرت أيام الطفولة، ووجوه المدرسين، وزملاء الدراسة، وألوان الفصول، وكراريس الرسم، وحصص التدابير والموسيقا، ورحلاتها الأولى للقلعة والهرم وحديقة الحيوان، استعادت مذاق سندوتشات الجبن والبيض التى كانت تعدها أمها أيام البراح لتغذى براءتها.

استرجعت ذكريات الصبا ولقاءات "زيزى" القوية ، وخبث الكوافيرة وطيبة "نعيم" ودهشة تاجر اللحوم البارع بالحسابات، دخلت الشارع الخلفى، شاهدت دماء المتشاجرين تنزف على الأرض، ابتعدت عنهم قليلا متذكرة خسة يونس وزوجته المقهورة التى لطمت خديها بشقتها ونعتتها بالعاهرة متناسية وثيقة الزواج الشرعية على بعلها، عاد وجه "موسى" الأصلع وزوجة " سلطان"، فبصقت على الأرض لتزيحهم بعيدًا عنها. نادى "سليمان" المحامى عليها، لم تسمع نبرات صوت القواد ، تجاهلته وسارت وحيدة لتكتشف ممر الحياة الجديد.

دخلت المدينة متجهة إلى المقهى المفضل لديها ، نظر الرواد باندهاش إلى وجهها الصبوح، انبهروا لعودتها بعد شهور طويلة، قال النادل اللطيف مرحبًا بعودتها: " أحلى شيشة تفاح لست العرايس"، شربت الكابتشينو، وودَّعت النادل، متوجهة إلى ميدان العتبة وسيدنا الحسين والسيدة نفيسة، مبتهلة بأنوار الملائكة، زارت السيدة زينب لتتبارك بهالتها السماوية،

حينما أوشك نور النهار على الاختفاء، نادت على التاكسى قائلة: "ميدان روكسى يا أسطى "، تأملت الترب المنتشرة فوق جبال الدراسة وهى تجلس على الكنبة الخلفية بالتاكسى ، دار بداخلها شريط الأشرار مرة أخرى، طردت وجوههم الكئيبة من ذاكرتها ، تفادت رؤية رفيقتها "سماح" ووالدها المقتول ، سألت السائق: "ناقص كتير يا أسطى ؟ رد بأدب:"عشر دقائق يا هانم "، حاول محادثتها لاكتشاف طُهْر ملامحها ونبرة صوتها الحزينة، سدت أذنيها عن عمد ، ولم تتذكر ألوان ملابسه بعد نزولها الميدان.

دخلت محال الملابس الفخمة ، انزعجت لارتفاع أسعار قمصان النوم ، وتذكرت ألوان ملابس محل أمها واسعارها، خرجت مدهوشة لعودة النور بقلبها ، استوقفت "تاكسى" أخر، قائلة بصوت عالٍ: "حى الشهداء يا أسطى ".

طردت الهلاوس التى عادت لتذكرها بقرينة روحها "سماح" ، وقالت بثقة: "الآن أسير وسط الشوارع أتلمس الدفء وحدى، لن يكسرنى أحد، مازلت حية ".

عادت للمنزل والبكاء يملأ عينى أمها المسكينة، دخلت فى أحضان أخيها وخالها، ناموا جميعًا بالشقة آملين فى شفاء المحرومة من الصدمة التي افقدتها الذاكرة ، ولولا اتصال خالها بصديق دراسته " هارون" لكانت الآن جثة ميتة تتسول النعمة بجوار صناديق القمامة، استقبلها الدكتور بالمصحة الحكومية، ضمن لخالها رعايتها ، رغم بؤس الممرضات ونقص الأدوية . كان مدانً لخالها بكثير من العطايا، قال بحب له: "أخيرًا وجدت فرصة لرد جزء من أفضالك يا "يوسف" ، تركتها أمها تنام بسريرها بالمصحة شهورًا لتعود كابنة مخلصة للرب ، حكت له كأخ ورفيق ، نظرت إلى عينيه ، فأشعَّت بروح الألفة ، تذكرت وجه والدها المبتسم وهو يمشط شعرها ويقبل خديها صباح كل يوم متمنيًا لها السعادة ، بكت كثيرًا لغزارة مياه بئر الحرمان، فتحت ملفاتها المغلقة فى البعيدة.

قال الدكتور بعد نوبة بكائها الطويلة: "احكى ما تحسينه، لا تخشى أحدًا، أنت مازلت موجودة، يمكنك تجاوز ما حدث بفتح قلبك من جديد"، ردت بصوت عالٍ: "معرفش حاجة خالص "، أصرت على الخروج من الحجرة، فقال بحب: "خالك دفع فاتورة علاجك ، أنت فى حجرتك الآمنة ، لن يستطيع أحد خدش حيائك ، اعتبرينى رفيقًا لروحك "، تيقنت بصدقه؛ لحماية براءتها من الطمس، كافح لتنجو ، نادى على الممرضة، قائلا: "مريم البتول " أمانة ، كل شىء تطلبه يجب تلبيته، ابنة أخى الوحيد فلا تُؤذيها".

نظر بحب ناحيتها قائلا: "سأتركك لتستريحى، نستكمل غدًا حديثنا، أمامنا وقت طويل لنسمو بنقائنا فوق جرائم المشتبه بإنسانيتهم ".

تمتلئ المصحة بالحجرات المغلقة وتنتشر فى عنابرها الفئران والعناكب، رغم البراح المحيط بمبانيها الباهرة، لكن إدارة المصحة تبرر إهمالها لتآكل ميزانيتها، تركت العصابة التى تمتلك كل شىء المرضى لهلاوسهم ليواجهوا قسوة الممرضين بالداخل، وظلم أهاليهم وغدرهم بالخارج .

حينما تدخل من البوابة العريقة تندفع الرهبة لروحك، يسعدك الحظ حين تزور أحد أقاربك فترى وجوه المجانين كملائكة . رغم صراخ الممرضات والأطباء، يمسك الحراس العصىَّ الغليظة ويزجرون بها المرضى، يهددونهم بتسليط الكهرباء على أجسادهم النحيلة، تصرف إدارة المصحة ثلاث وجبات فى اليوم الواحد لكل مريض، وتضع لهم الأكل ككلاب، يعلم الأطباء بأن الحراس يُخرجون المرضى ليلاً، ليتسولوا بميادين المدينة، عائدين قبل الصباح لاقتسام ما يكسبون، رغم معرفة رئيس العصابة بالجرائم، لكنهم لم يوقفوا جبروت بشر تربوا على القهر وإذلال النفوس البشرية البريئة.

ينأى "هارون " بنفسه عن الدخول فى مواجهات مع العصابة ؛ خوفًا على مركز قريبه الكبير بالوزارة، الذى يشك فى معرفته بما يجرى من خلف ظهره، انزوى بين الروتين محاولاً بهدوء تقديم ما يستطيع للمرضى، لكن الدنيا كلها تعلم أن المريض الذى تركه أهله بالمصحة للعلاج من جنونه، لن يتمكن أبدًا من الخروج الآمن ؛ لأن العصابة تتكفل بهدم الجزء الباقى داخله، ليتحول فى النهاية إلى شخص تابع مسالم بيد مشرفيه، متحركًا ككلب وراءهم ولا يمكنه أبدًا دخول الحمام إلا بإذن الحراس ! خوفًا من الماس الكهربائى الذى يصعق روحه، ورغم ذلك أصبحت المصحة مصدر الطمأنينة والسلام للبتول، عاشت وسط المرضى الذين أغلقت عائلاتهم أبواب قلوبهم خلف الأسوار ؛ خوفًا من خلع أقنعتهم وهدم جدران معابدهم المظلمة، وكشف علاقاتهم المبنية على الغش، تنقلت بين عنابر الرجال والنساء كملاك، أصبحت صديقة للمرضى والممرضات والأطباء الآملين فى شفاء وتطهير أرواح المذنبين.

جلست مع رجل فى الأربعينيات يُدعى "عبد الله"، يحكى بأدب عن زوجته المفقودة وابنته العاقر التى حاولت معاشرته مخترقة ناموس الحياة، اتهمته بفض غشاء بكارتها ليضع إخوته

القيود فى يديه، طامعين فى قيراطين الأرض "الحيلة "، أطلقوا للصبية العنان لتعربد كمومس ويحرموها من الإرث ؛ لأنها الداعرة بنت المجنون.

صادقت "عبد الهادى" الضرير الذى فوجئ بعشيق زوجته، نائمًا على سريره، حاول الإمساك بملابسه الداخلية، فهرب من الشباك إلى أسطح الجيران، تجمع الناس على صراخه، اتهموه بالجنون لأن زوجته تركت منزله بعد مشاجرتها الأخيرة معه منذ شهور، بسبب طرده من العمل وعدم الصرف عليها، لم يقبل أهل الحارة تبريره فسحبوه مسالمًا، ليضعوه خلف أسوار المصحة .

حضنت "عبد المولى" الذى تصبب العرق وتبول على ملابسه بعد أن رأى والدته تمسح بلاط المدرسين الذين يأخذ عندهم الدروس مجانًا، زجر أمه حرصًا على كرامته بين زملائه بالفصل آملاً فى توقفها عن زيارة شققهم المفروشة، فجاء المدرسون لاستكمال مراجعة دروسه، رحبت وهى منزوعة المشاعر بحضورهم لتنام بأحضانهم على كنبة حجرتها الوحيدة وهى عارية، حينما رفض وجودهم، هددته بطرده للشارع، فقتلها فاقد الأهلية بسكين بارد، فسلمه الجيران للبوليس ليضعوه بالمصحة بعد أن حكى قصة أمه المسكينة.

تشممت عشق "إسلام" لرائحة النساء وهو يبكى بين يديها، قائلا: "وجدونى بالشارع أمارس الرذيلة مع كلبة يتيمة بعد هجران زوجتى التى أجبروها على العيش بمنزلى، فاتهمنى أولادى بالجنون، ووقَّعت المحرومة من الحب على دفاتر المصحة ؛ للموافقة على إيداعى للأبد بعنبر الأشرار".

سَعِدَ "هارون" لثقة المرضى بروحها الطيبة، قال مبتهجًا: "نحتاجك طبيبة معنا يا أم النور لمداواة المجروحين"، رغم علاقتها الطيبة بالمرضى الذين وضعهم أهاليهم بالمصحة لستر الفضائح وسرقة أموالهم، لكن " مريم" تجاوزت الخير والناموس لتدفئ قلوبهم فاستمتعوا ببهائها وبراءتها، أعادتهم كأطهار لنيل الخلاص والاستمتاع بالبراح الواسع بحدائق المصحة.

صادقت "أنهار"، المرأة المتزوجة من مهندس فاشل، أنجبت منه ولدين بعد طول معاناة، تترك بيتها فى أى وقت، تذهب لعشيقها المقاول شريك زوجها لتنام بشقته دون أن تهاب أحدًا، سمعت "البتول "حكايتها ولم تدهش من جنون معاشرتها، نامت مع كثيرين من أصدقائه دفعة واحدة دون أن يفجعوا أنوثتها.

تذهب لمكتبه وسط النهار فى غياب زوجها، تشرب البانجو، آملة فى الانفصال عن الدنيا، يقوم المقاول بنزع ملابسها كاملة ؛ ليروى جفاف روحه، يعاشرها بالساعات رغم انتظار العمال أمام الباب، لم تدهش لقيام امرأة بفتح الباب والدخول عليهما، مستمتعة بمشهد عشقهما، خلعت ثيابها واحتضنت المقاول من الخلف، لامست حلمتا صدرها ظهره، يترك رفيقته " أنهار "مشدوهة بالعشق، ليفجع زائرته الفاجرة زوجة أحد الجنرالات التى يعاشرها مقابل ترسية العطاءات الحكومية على شركته بتوصية بعلها أحد أفراد العصابة، ويعيد إلى أنوثتها الجفاف والشوق لشم رائحة الزهور.

بكت وهى تحكى لـ ""مريم" عن ضرب عشيقها لها فى أثناء نومه معها، بادلته تقطيع جسده بأظافرها، رتب مع أصدقائه ليعاشروها جماعة فى شقته للسيطرة على جموحها، نام ثلاثة منهم فى أحضانها على سرير واحد، لم يتمكنوا منها رغم نضالهم الطويل، حاولوا امتطاءها برقة متناهية، يلحس الأول فرجها برقة، يتفرغ الثانى لمص حلمتى صدرها واستدارة نهديها الرائعين، ليدخل "شريك زوجها " قضيبه بمؤخرتها، تضحك مدهوشة وهى تحكى عن قوتها الساحرة لهزيمة أى رجل يدخل مجالها الأنثوى، قائلة للبتول: "تتمنى النساء فى زماننا رجلاً واحدًا، ويمن الله على بثلاثة فى أيام كثيرةٍ!".

كشفت أوضاعًا رهيبة للعشق الجماعى والاستمتاع بصراخ وبأصوات الرجال المختلفة فى اللحظة نفسها، تعجبت البتول لسماع القصة.

تذكرت " مريم" شركة " طاهر" التى يعمل عنده حبيبها " سلطان" فسألتها عن اسم المقاول الذى ادعت أنه يبنى البيوت بأسمنت مغشوش، قالت " أنهار " بغرابة: " اسمه المقاول شريك زوجى " ؛ الذى يرشو العصابة ليسمحوا بالبناء المخالف للمواصفات "، فتحت "مريم" قلب المجروحة قائلة: "كيف انتهت علاقتك بعشيقك ؟"، بكت "أنهار" مكسورة الجناح، قائلة: "كان يتقاضى من أصدقائه ثمن استمتاعى ، جاء لزيارته بالشقة تاجر خردة دون موعد، استأذن عشيقى لينفرد المجرم بجسدى، كالمحروم من الحياة، مزق ملابسى ، وضع يديه على فمى كاتمًا صراخى رغم إغمائى وفقدانى الحس، قام بامتطائى حتى نزف الدم من فرجى ومؤخرتى ، أخذنى زوجى من الشارع عارية ليضعنى بالمصحة، اتصل به أولاد الحرام ليدارى الفضيحة، أحضرنى فى الظلام ليخرجوا من روحى البلاء ".

وصفت خليلتها زياراتها لأولياء الله الصالحين والشيوخ العارفين بالأرواح للخلاص من القهر ، قالت بأسى: "فشلوا جميعًا فى إعادة إحساسى بأولادى كأم، سقونى شرابًا رائعًا ، رقونى لطرد الشيطان المسيطر على جسدى النضر.

أحبت "مريم" كأخت لها ، أصبحت مرشدتها لوقف جموح أنوثتها المرعب ، أدت دور "سماح" المفقودة مع خليلتها الجديدة ، تطبطب عليها لتنام، تمدها بالأمل لتحصل على بديل للشرير القابض على أعماقها .

عندما تيقن خالها وأمها بشفاء قلبها، طالبها " هارون " بجمع ملابسها لتعود إلى منزلها بعد دفن الشر والخونة في أماكنهم بعمق الذاكرة.

كسبت المجدلية أشياء كثيرة من تجربة المصحة لكن خروجها بصديق رائع مثل " هارون " كان تعويضًا من الدنيا عن الجحود ، استمتعت بمقابلاته ودفء صوته معتقدة أنه بديل لقرينتها المنتحرة " سماح" .

الشيء المؤلم الذى تذكرته فى أثناء مغادرتها المصحة نسيان حبيبها الحضور للاطمئنان على سلامتها، رغم اتصال "رحمة" وخالها بتليفون عمله عدة مرات ليبلغوه بمواعيد اللقاء، تحجج كعادته، بسفره المفاجئ واحتجاز أخته بالمستشفى ومرض أولاده، فتأكدت بأنه لن يعترف بوجودها ، إلا بالموت.

"بيت العُهر"

توطدت علاقتها " بهارون" بعد خروجها من المصحة، تقابله بمقاهى البلد لتخفف عن كاهله الآلام التى يغوص فى عمقها كل يوم، ساعدها لتلتحق بالعمل كمشرفة ببيت اللقيطات لتأهيل الفتيات المغتصبات بقبول النكران برضا، بعد توسطه لدى قريبه صاحب النفوذ، حتى قُبِلَتْ على مضض بمرتب ثابت.

تركت أحلام الشقة والسيارة والدخل، ونزلت إلى معترك الحياة باحثة عن الأمل، حذرها "هارون" من صعوبة المهمة ؛ فالإشراف على تأهيل بنات فى عمر الزهور فقدن الأمان مرة واحدة، ونمن بالشارع كمأوى أخير من الذئاب التى نهشت حياتهن ، أمرٌ عسير، قال مؤكدًا استحالة التأهيل: " تناوبهن المتلصصون على تناول بقايا الرمم، ومصوا رحيقهن المبدع، فعصوا براءتهن وبكارتهن، فلم يعد بأرواحهن إلا الشر ".

استقبلتها المشرفات والمديرة بحفاوة مفتعلة، وهن يأملن ضمها للشبكة التى تدير الدار، لاستلاب البنات، بدعوى أنهن بنات زوانٍ لا أهل لهن.

تجلس بالساعات فى حجرتها بالدار، تستمع لحكايات مفزعة لفتيات صغيرات، بادلت الدنيا براءتهن بالقبح، أيقنت أن مصيبتها تهون مقارنة بمآسيهن، صادقتهن وعاشت حياتهن ، فهمت السر المخيف لاستغلالهن.

جئن إلى الحياة بدون أب، محرومات من حنان الأم، ولدن دون هوية، فاختارت الدار وأولاد الحرام أسماءهن، مررن بتجارب مريرة، أحست بفجيعتهن، نزف الألم من عيونهن وهن يستعدن مشاهد اغتصاب رجال ادَّعوا أنهم آباؤهم وإخوتهم وأزواج أمهاتهم، سحبوهن وجروهن وراءهم بالشوارع كالبغايا، مهددين بقطع ألسنتهن، بِعَنَ أجسادهن ليأكلن لقمة باردة مفعوصة بالعهر، حلمن سنين بالنوم آمنات من ذئاب الطريق، عاشرهن رجال كثيرون من خلف ظهور زوجاتهم، ليكتشفوا سر الأنوثة المبدع بفروجهن العارية، طُردن شر طردة فى الشوارع بعد اكتشاف علاقاتهن السرية بأزواج بائسين، سمعن جميعًا من نساء متزوجات عملن بمنازلهن الكلمات نفسها: "اخرجن يا شراميط لكلاب السكك ليلحسوا فروجكن "، أكلت أرضيات الحجز

بأقسام الشرطة والأحداث من أجسادهن "راءات " ، ومع ذلك ظلت صدورهن تمتلئ نضارةً وعشقًا .

عايشتهن كأخت، لاقت الأمرين لكسب ثقتهن، أفشلت حيل المشرفات لتطهير قلوبهن، واجهت قسوة المديرة لرفضها أخذ حصتها من العطايا التى تصل إلى الدار من بشر يحاولون تخفيف ذنوبهم.

امتلأت قوة لمواجهة ألاعيب العصابة المسيطرة على مفاتيح الأبواب، لولا علمهم بعلاقاتها بالدكتور "هارون" قريب وكيل الوزارة، لطردوها للشارع عارية، قالت الموظفة العانس بحسرة: "لولا رفيقها لكنا أودعناها السجن، بتهمة إدارة شبكة الدعارة السرية، ببيت تأهيل الفتيات اللقيطات"!

يذهلك المبنى الفخم بالحى الراقى، وأنت تستقبل ساحته، سحبت الإدارة ببراعة القوادين أى أثر للنور من طرقاته، رغم اتساع المكتبة والورشة والحدائق المحيطة به، لكنك تشعر بالوحشة تدخل روحك وأنت تشاهد وجوه البنات كصَّبار جاف وسط صحراء، الأسرَّة الحديدية الكثيرة التى ملأت حجرات النوم تدعوك إلى القيء ، وُضِعت عليها مراتب إسفنجية بالية وغُطت بملاءات باهتة، تجحظ عيون المديرة والمشرفات والحراس وهم يستقبلون البنات كل صباح، يعاملوهن بقسوة طبيعية، ليعيدوا القهر الذى تربوا عليه بالشارع والبيوت لأرواح الصبايا .

سلبوا غبطتهن وهم يعذبونهن لتلفظ إحداهن بكلمة جارحة أو تلمح بإشارة بذيئة . رغم العطايا والهدايا التى تصل إلى الدار، لكن مطبخ الدار الفقير وطعامهم الماسخ يجعلانك تحس بأنك تتناول برازك.

وسط برك الشر تنمو الزهور البريئة، سعداء بوجودهن تحت حماية سقف حجرة تحميهن من شر الشارع الذى نُسِبن إليه، لكن الليل مختلف فى حياة الدار لتواطؤ المشرفات اللائى يعملن ليلاً مع حراس البوابة، ليسمحوا بخروج البنات ؛ برفقة الرجال الذين يضعون مئات الجنيهات كل ليلة بأدراج مكاتبهن ؛ لينالوا إحدى الفتيات، ليستمتعوا بأجسادهن لساعات طويلة بشققهن المحيطة بالدار ثم يعيدوهن إلى الدار محملات بالعطايا ، تحكى صاحبة الحظ بعد عودتها إلى زميلاتها عن ليلتها السعيدة، يتناولن بحسرة فضلة خير أبناء المدينة الفاضلة.

أدى وجودها إلى تغيير نمط الحياة بالمؤسسة ؛ فحين رفضت أَخْذَ نصيبها مقابل صمتها، أيقنوا بخطورتها ، وبدأوا يمارسون دناءتهم ضد الفتيات في السر ، تحسست الصبايا قلب البريئة، فحكين لها ما يجرى من خلف ظهرها، آملات فى وقف فشخ أعراضهن، زاد ذلك من إصرارها لتنتصر على الشر ، فتحن قلوبهن لأم النور لتقدم الشكاوى ضد الضباط والقوادين الذين لفقوا لهن القضايا لإلقائهن فى الدار جراء رفضهن السمع والطاعة.

أبدعت طرقًا جديدة لتأهلهن، قامت بعرض مسرحية "بيت الشر" وسط صالة الدار الواسعة، قامت البنات بأدوارهن ببراعة فاقت خيال المؤلف، أدَّين أدوار القوادة ورئيس العصابة والعاهرة والزوج المخمور والجدة الطيبة والشاب المتهور ، ليمثلن التجارب الحافلة بحياتهن، ذهلت المديرة والموظفات وهن يشاهدن الفتيات يُعدن أدوارهن على خشبة المسرح دون خشية، دعَّمها "هارون" وسط البركة العفنة التى وضعها فى عمقها على أمل إعادة البنات لأصولهن البكر ، ساهم بإرساله فتاة أخرى للدار لتعليم الفتيات نطق الحروف والتهجى الصحيح للوطن والأم والأب والابن والأهل والحب والأمان.

فتحت المشغل المغلق ؛ لتصنع الفتيات اللقيطات أجمل قمصان قماشية رائعة، ليتزيَّن بها ليلة زفافهن، أصلحت الكاسيت الصغير بالدار لينشر موسيقا لملحنين تعذبوا بسبب حرمانهم رضا ونور الحبيب فاستحقوا الخلود، قبلوا الجلوس خلف المسرح لتشدو مغنيات رقيقات كلماتٍ رائعة ؛ انبهرت شبكة الدعارة التى تدير بيت أبناء الزوانى، لترديد الفتيات الأغانى "عمَّال على بطال"، كأملٍ للخلاص من سجنتهن.

صادقت " عائشة "التى كانت تعمل راقصة بشارع الهرم، وعاشرت مئات الرجال، وحين رفضت أن تعطى القواد أكثر من نصف المبلغ فى ليلة غابرة، بلَّغ عنها الآداب العامة ليتهموها بممارسة الدعارة دون بلوغ السن القانونية ! ظلت علاقاتها مستمرة فى الخفاء، برجل سعودى ، بحث عنها العربى متلحفًا بغطرته السوداء شهورًا حتى عثر عليها فى الدار ، تزوجها بورقة عرفية حتى لا يخالف شرع الله، استعادها لأحضانه فى أيام الأجازة بالمدينة، يدفع للمديرة ألف جنيه، وألفين للموظفات وحراس الدار ليسمحوا لشوشو بأن تبيت بشقة زوجها ليالى كثيرة، دأبت شبكة الدعارة التى تدير الدار على تأجير أولاد الزوانى لنافذين من العصابة عدة أيام مقابل تقديمهم المن والسلوى، والعطايا للموظفات، أعادت البتول إلى شوشو اسمها الحقيقى، سعدت بعودتها فردَّدت لحن أغنية أحبتها كثيرًا: "تانى وتالت ورابع...بحب وميهمنيش "، فزعت المديرة من غناء الفتيات بحجرتها الواسعة بموسيقا مبهجة، دون خشية من عينيها القاسيتين، صرخت

فى جمعهن ذات صباح يوم أسود: "اتلموا يا شراميط، يا أولاد القحبة"، قامت الموظفات بصعقهن بالكهرباء بحجرة الفئران دون رحمة، لمنعهن ترديد الموسيقا والأغانى.

قدمت المديرة الشكاوى إلى رئيس العصابة ضد البتول، لقيامها بتعليم البنات العشق والأغانى ، قالت لرئيسها هامسة: "تحرضهن ضد أوامرنا وتمنع انخراطهن، تفسد أخلاقهن، تسخر من تعليمهن المهن الشريفة بالنجارة والزخرفة فى ورش الدار".

أكدت المشرفات صحة وقائع الشكوى، قائلات بالتحقيق: "تتغيب البنات عن حصص الورشة، رافضات نصائحنا للاندماج والعودة للمجتمع كأسوياء ؛ لمواجهة الحياة بوسائل كريمة للعيش ؛ وبدء حياة جديدة كمومسات منَّ الله عليهن بالتوبة ليصبحن شريفات".

وقّع الأسطوات على الشكوى ليطردوا المجدلية من الدار لتعود الفتيات إلى ظلام الورش ويختلوا بهن وسط المكن وبين الغبار، فيلحسوا أجسادهن ونهودهن النافرة النضرة، مذهولين من نور عيونهن، حالمين بانقشاع ظلام قلوبهم الأبدى.

قال حارس الأسوار مؤكدًا الوقائع: "امتنعن عن تعلم قيم الصبر والغدر والهوان، ثرن ضد الإدارة وقلن كلامًا قبيحًا فاحشًا يعجز لسانى عن ذكره".

سمعت مريم فى يومها الأخير بالدار المشرفة العانس الشريفة، تقول: "أولاد القحبة يعاشرن الرجال بشبق رهيب، رغم سرقة عمرهن وحبسهن ليلا بالدار، ما زالت أرواحهن تنضح بالحياة رغم النجاسة"، نظرت بغيظ إلى السماء صارخة: "يا مُقسِّم الأرزاق، لماذا لم تخلقنا لقيطات ؟!".

حين هددت العصابة الدكتور "هارون " بالفصل من وظيفته بالمصحة، لمشاركته المجدلية الكفر، تدخَّل قريبه لينفى علاقته بالموظفة، اتصل بهارون وعنفه على طريقته الساذجة التى يمكن أن تهدم مستقبل العائلة ذات السمعة الطيبة بأروقة العصابة، قال كلامًا طيبًا حول منصب الوزير الذى ينتظره وضرورة قطع علاقاته بأبناء حى الشهداء الغارقين في العهر.

خلال الشهور الطويلة التى مكثت فيها بحجرات البنات، طهرت أرواحهن من الدنس، لم تخرج عن نطاق عملها إلا مع خالها و"زكريا"، للتخفيف عن نفسها حمل تأهيل البريئات، سعدت

"رحمة" لشفاء ابنتها، وللدخل القليل الدائم الذى مكّنها من شراء الطعام "لزكريا " الصغير، عادت فى النهاية إلى منزلها مطرودة، لم تتناول طعام أمها الطيب، اتصلت "بهارون"، لم يرد ، تحتاج سماع صوته ، فكررت الاتصال ، أغلق هاتفه، لن يتحمل عتابها لاعترافه بالتحقيق بأنها خريجة مستشفى المجانين.

قررت اللجنة "مستريحة الضمير " بعد مناقشة القرار مع العصابة بفصل المخبولة التى دخلت احتيالاً بيت الزوانى، لتحقق أحلامها المستحيلة ببراءتهن، انبهرت اللجنة لتجاوز الفتيات المحرومات من التنفس الآمن ناموس العصابة، اكتسبن حريتهن لشهور، واجهن مصيرهن وحيدات، غير عابئات بالأسوار.

سجلت اللجنة بضمير مخلص شهادات المشرفات والمديرة والأسطوات والبنات العفيفات اللائى قلن الحقيقة: "نعم علّمتنا الأغانى المبهجة، مثلنا أدوار القوادين والمومسات فى المسرحيات المختلفة بكفاءة، تفوقن على أنفسنا فى تهجى حروف الحب والوطن، بطريقة جعلتنا نعلن هويتنا دون خوف".

أَحْبَكْنَ بشهادتهن خيوط الغدر حول رقبتها لتواجه مصيرها وحيدة من جديد، تركوا لها الاختيار الوحيد الباقى: الموت دون إعلان براءتها.

خبأت عن أمها الخبر الذى لا يسر عدوًا ولا حبيبًا، جلست بالشقة كميتة لساعات دون خلع ملابسها ، ثم تمددت على السرير، قالت الأم الموجعة: "أنت حزينة يا ضناية، فداك الدنيا كلها"، نظرت إلى "رحمة" بشفقة – الملاك الباقى لمدها بالأمل –، وقالت بحياد: "تصبحين على خير يا ست الكل " ودخلت فى نوبة نوم عميقة.

شاهدت حبيبها مختالاً ببهائه، راكبًا حصانه الأحمر، يقف وسط الشارع معلنًا حلول موعد الزفاف، أيقظها الجيران لاستقبال نور عينيه، حضرت سماح من قبرها مبتهجة، قفز خالها من مخدعه مدهوشًا ليفصل فستان الملكة، جرها الجيران من السرير لتبارك الزفة كأجمل عروس، لم تصدق نبوءتهم، ردت تائهة: أنا "مريم البتول "، لن يعترف ببراءتى إلا بالموت، قالوا: "يا متشائمة ينتظر إشارة منكِ لتعودى إلى أحضانه، يا سيدة الكون، الشارع كله ينتظر، الخلق كلهم يرقصون مبتهجين، ينتظرون رؤية الحورية البكر فى ليلة زفافها، ليحتفلوا بنور فستانها الأبيض"، نزلت مسرعة لتطير راكبة وراءه فوق حصانه، سعيدة راضية بظل حبيبها العائد.

جهز خالها الفستان الحرير بمحله فى لمح البصر، دعكت "زيزي" جسدها بالفل، ألبستها "بوسى" الكلوت الشبيكة، ليظهر سقف فرجها الجميل ممتلئًا نظيفًا، بكت "رحمة" على خدود العروس ، ثم قالت بثقة لابنتها الوحيدة: "تستحقين السعادة وإنجاب الأطفال، وانتظار حضن فارسك آخر الليل ليدفئ روحك ".

لكن صراخ الجيران فى الصباح الباكر أعادها مشدوهة إلى الحى البائس، تشاجروا مع محصل الكهرباء رافضين دفع ثمن نور السلم لإظلام المدخل طوال الشهور الفائتة، عادت من حضن الحبيب قاسى القلب، مفزوعة من صراخ الجيران، قالت حزينة وهى تدخل الحمام: "لم يرِقَّ قلبه باتصال تليفونى واحد، القاسى ناكر عطائى وإخلاصى ".

تأملت حركة الظل تحت المنزل وانتقال أشعة الشمس من السرير إلى بلاط أرضية الحجرة ساعات كثيرة، تمر الأيام الكئيبة برتابة قاتلة، لم تغادر المنزل طيلة أسابيع طويلة، أحست قلب أمها المسكينة ينقبض لإخفاقها فى العثور على رائحة رجل يصون كرامتها، ويلم فضيحتها المكشوفة بأية خرابة بعيدة تُسمى "منزل العروسين "، آملة فى نسيان الحى للعار الذى لحق بسمعة ابنتها كمطلقة، حاولت البحث عن عمل جديد، فتشت فى إعلانات الجرائد عن موضع قدم لعمل امرأة شريفة، لم تجد، نظرت إلى رب العباد ساخرة قبل نومها ساعة غضب، وسألته حتى يلين قلب أى صاحب عمل، ويقبلها كخادمة لتخرج من جديد للنور.

كلما دخلت على " زكريا " الحجرة وهو يذاكر دروسه، أخذته بحضنها، قائلة: "كبرت يا خويا وأصبحت رجلا"، يحس الفتى بأحزانها، يقرر بصمت النزول إلى العمل بعد الظهر بورشة نجارة مجاورة لشارعهم، ليصنع المكاتب والأسرَّة، رغم علم الأم بعمله من خاله، وإشفاقها على وليدها، فإنها تركته مجبرة ليعود كل أسبوع ببعض الجنيهات القليلة التى يتقاضاها.

أدت زيارة "زيزى" ، و"نعيم" ، و"إبراهيم" ، و"بوسى " إلى دهشتها، شاهدوا امرأة أخرى خلاف المجدلية المعطاءة للحب دون حساب، رحبت بعودتهم، قدمت " رحمة" الشاى إلى ضيوفها، امتنعت عن مبادلتهم أحاسيس الحب، تيقن "إبراهيم" بن حسان النجار برفضها العودة إلى أحضانه، سخرت من عرضه بالعمل بأحد مكاتبه، قالت بإصرار: "شبعت مكاتب يا عم "إبراهيم"، خُلقت لأشياء أخرى".

قالت "بوسى " بخلاعة: "اذكريها لنا ياست الناس لإنارة طريقنا! "، ردت "مريم" بحب: "حين أعرفها سأقولها لكم، لن أبخل أبدًا على أحبابى"، ودّعوها مشفقين على نهاية حياتها المأساوية، قالت "بوسي" فى أثناء نزولهم على السلم لتنهى حوار " نعيم" و" زيزى" الكاذب المدعى بطهارتها: "اختارت مصيرها فاستحقت الثمن ".

أضحت زيارة "مديحة" مدرّسة الدار الأمل الأخير للنجاة، أدهشتها رقة صوتها وهى تعلم الفتيات تهجى كلمات الرحمة والعدل، أكدت مقاطعتها " لهارون"، وتركها العمل بالدار لرفضها موقفه المخزى، قالت بحب: "نستأجر شقة بالحى لنُعلِّم الأطفال معنى المساواة"، وسحبت المجدلية من أصابعها الرقيقة لتبارك المقر الجديد بروحها الطاهرة.

فوجئت بصديقات " مديحة" يعلمن الأولاد الأمل، سمعتهن يغردن فى قلوب الأبرياء ليرفضوا الكذب والخداع والخيانة، أعجبت بوجوههن الناصعة، دهشت لعرض " مديحة"، بالانضمام إلى المجموعة، فقبلت دون تردد، دأبت على زيارة المقر كل يوم لتضىء حياتها الجديدة بالنور ، أصبحت فى غضون أسابيع معلمة ناضجة بفروع المعرفة المختلفة، توطدت علاقاتها بالجيران الراغبين فى سماع كلمات آملة تبشر بحياة سعيدة، أحبت لغة المجموعة ورددتها بحب، وثقت نساء الحى بها، افتخرت قيادات المجموعة بإخلاصها، أعطوها المفتاح لتدير المقر وتلقِّن البراعم الصغيرة دروس الموسيقا والأغانى، استعادت من جديد الروح الخلاقة ببيت أبناء الزوانى وفتيات العشق الإلهى.

عادت كأميرة مرة أخرى، تجددت أنوثتها لتطول السماء، تناست نظرات الرجال المدهوشة، لتعطى لنفسها فرصة جديدة لاكتشاف السر ، تعرفت على "يحيى" خريج الجامعة الأمريكية، ابن الذوات الذى دغدغ بعذوبة صوته ورقته ووصاياه مشاعر رفقائه، يلقى تواشيحه بقلوب المترددين فيعيدهم كملائكة أطهار مقبلين على الحياة، بادلها الافتتان بقلب صافٍ، دعاها إلى صحبته لتؤنس وحدته بعد سفر عائلته لبلاد بعيدة.

خرجا كرفيقين لمقاهى وسط المدينة، يناقشان أمور الدنيا وأوضاع المجموعة وممارسات العصابة، أبدعا معًا لوحة المستقبل وهما يتفقان على أطر جديدة لنشر الخير وسط الشوارع، قرأ معًا كتابات كثيرة لمشاهير وأدباء وسياسيين، استعادت ذاكرة الخلاص لتمر من النفق آملة فى النهاية السعيدة، احتضنها شهورًا ليغرس فى روحها قيم المجموعة القائمة على الحب والطهر

والنقاء، تعرف على رحلتها في جلساتهما الطويلة، بادلها الاهتمام والثقة، أيقنت أنه محبوبها الأخير، شكرت ربها لعطائه الدائم للمحتاجين.

تجرأت من جديد على ممارسة الحب بأحضانه، لا تنسى ليلتها الأولى في شقته وهي تعاين الحجرات لتكتشف روح المكان، تركها تجوب الشقة الواسعة، منشغلاً بتجهيز عشائهما بنفسه، تناولا الطعام كعاشقين، احتضنها برقة وعذوبة بعد سماع موسيقا الزهور البراقة، بادلته الحنان، تدفأ بعطرها المذهل، اطمأنت على بئرها المليئة برحيق الرضا الصافي، انطلقت تغرد غير عابئة بالمصير، قالت لنفسها بثقة: "كيف لنبي مثل "يحيى "أن يخون ؟!" .

أضحت كحورية متدفقة ظمآنة للنور، أبدعت بالشوارع وهي تردد وصايا الملاك الطاهر، اكتشف زملاؤها من جديد براءتها، آمنوا بروحها كبتول مخلصة، رغم فُجر عصابة بيت أولاد الزواني ومصحة المجانين ونكران الحبيب ودعارة الزوج بعمق ذاكرتها فإن المجدلية ما زالت تعطي دون حساب أو خوف.

يمتلئ المقر بالكتب والنشرات ومجلات الحائط، ويحاط بنور وبهجة مشعة من عيون الفتيات والفتيان الذين أرسلهم آباؤهم ليأخذوا الدروس في المجد والتاريخ، نظم الرفاق رحلات لأبناء الحي، لزيارة الأماكن المقدسة وشواطئ البحر البعيدة، توطدت علاقاتهم مع الجيران كإخوة وأبناء مصير واحد، أرسلت " هنية" جارتهم بحب أكواب الشاي الساخن والنعناع، سمحت دون خوف بتعليق مجلات الحائط التي تكشف قهر العصابة بمدخل العمارة، حافظ أبناء الحي على اللوحات الكثيرة المعلقة على مداخل الحارات ، ليعلنوا نجاح المجدلية في تطهير مجاري الشر.

سمح ضيق المقر بتلاصق الأجساد واختمار روائح الخير، فتلاحم الأمل والحب، لتهرب النفوس البائسة الشريرة، تمكنت مع "مديحة "من إعادة مسرحية " الأشقاء الطيبين" فخلبت عيون الأطفال، ظلت تقدم عرضها الأسبوعي عدة أشهر ، حققت حلمها كمخرجة، لم يصدق الرجال والسيدات بالحي كل إبداعها وصفاء روحها. ورغم حقدهم القديم فإنهم قدموا الاحترام لامرأة ناضجة بعد إحساسهم بأن تغييرًا طرأ على سلوك أبنائهم الصغار، فوقفوا إجلالاً واحترامًا بالشارع وهم يرددون سلامها رغم معرفتهم بدخولها مصحة المجانين.

تعْلم " مريم" أن الفضل يعود إلى مديحة ؛ لإعادتها إلى طريق المساواة مرة أخرى ، لكن كلمات " يحيى" دخلت قلبها فأضاءته بالإيمان بولادة جميع البشر من رحم واحد، أحست صدقه

وتلمست دفء عينيه وهو يدخلها مرحلة النور الذى ملأ حياتها لإحساسه بأنها امرأة مكتملة مخلوقة من خلطة السلام والسعادة، مدها بمزيد من الإجابات عن أسئلة ظلت سنين، تبحث عن تفسير منطقى لغموضها.

قررت قيادات المجموعة بالإجماع صرف مكافأة شهرية لتغطية احتياجاتها لتفرغها التام ، ساهم مرتبها الصغير فى تغطية مصاريف الدراسة وإطعام أخيها بعد قرار الأم ببيع المحل لسداد الديون المتأخرة، اشتراه خالها بالكراكيب، بعد تغيير عقد الإيجار مع الشيخ " رشدى" ليخلص أخته من عبء مطالبة الجيران بالسلف والديون، ماطل التجار والأقارب ليفوز بالنهاية بالمفاتيح، وضع على بابه لافتة كبيرة، كتب عليها "ترزى الأمانة "، سلم محله القديم إلى صاحبه وتسلم خمسين ألف جنيه ، رصَّ المكن وكراسى الأنتريه الجديدة بجوار الحوائط، تاركًا للسيدات مكانًا فسيحًا ليسرن مختالات أمام عينيه الفاتنتين، يشع وجهه بالنور وهن يدخلن بأردافهن الناضجة وصدورهن النافرة، فيمتلئ المحل بالبهجة، سعيدات بلسان يوسف ومتمتعات بشم العشق المنطلق من عينيه باعتباره أجمل خلق الله.

رغم دهشة " مريم" من موقف خالها الصامت تجاه مقتل والدها الذى يعرف الجميع أن أنصار " رشدى" هم من دبروا المكيدة وقطعوا شرايين قلبه لرفضه وقف الاتجار فى كلوتات ومشدات صدور النساء ، وعدم مراعاته لحشمة نساء الحى ، لكنها قالت بقوة والشرر يتطاير من عينيها وهى توقع على التنازل لخالها : " لن ننسى دماء المصرى أبدًا " .

تمكنت البتول من قلوب زائريها بالمقر، لتبدأ بملء جوف الأنقياء منهم بالحب والتحدى، توطدت علاقاتها "بمديحة " رفيقتها الجديدة، تنام بمنزلها وتذهب برفقتها للمنتديات والمقاهى، يتناقشان فيما يدور بشوارع البلاد الواسعة وحواريها، يحللان بحسرة كَنِساءٍ كلَّ عهر العصابة التى تجعل البشر خانعين راضين بمصيرهم المحزن.

نسيت نكران الحبيب المفقود الذي انزوى خلف براكين مخيفة بأعماقها، اعتقدت باندثاره ليرفرف "يحيى" على قلبها كعصفور طليق، آمنت بحماسه وصدقه، حكت بأحضانه كمجدلية تاريخها القديم، كشفت دناءة "يونس" و"موسى" و " سليمان"، أفرغت وعاءها كاملا لتعيد ذاكرة المصحة وبيت أولاد الزوانى أمام عينيه، آملة فى غطاء فضى طاهر ؛ لمداواة جروحها وآلامها، دهش غير عابئ بنبرات صوتها، أخذها بحضنه، قائلا: "مازلتِ حية، كلنا أبناء خطيئة ".

"مساواة الكفرة"

شــيء مـا بـداخلها يـدفعها إلــى إحـداث يـوم فـارق، تصـفحت عنـاوين الجرائـد والكتـب والمجلات الملقاة بمقر المساواة، شاهدت صورًا لسياسيين وأدباء وفنانات ولاعبى كرة قدم، قرأت تعليقات رسامى الكاريكاتير بلا مبالاة، شيء ما يبحث عنها وتذهب إليه دون إرادتها، ينغص حياتها ويدفعها إلى الجنون مرة أخرى، قالت لنفسها بعد ساعات من تصفح الجرائد المختلفة: " أية قدرة رهيبة على الاحتيال لهؤلاء الكتاب لرصهم كل هذه الكلمات وتنسيقها ومراجعة حروفها دون كلل كل يوم، لتخرج بالميزان كالشعرة التى تفصل بين الحلال والحرام ؟!"، قررت تسليم الجرائد للفوال، ليلف بها السندوتشات والطرشى ويعيد إلى الورق قيمته !

استعادت مرة أخرى نبرة صوتها بالاجتماع السابق وهى تواعده، قائلة: "ستجدنى بالشقة قبل الموعد يا "بيبى "، تشممت رائحته الساحرة وهو يرد دون اهتمام: "ربنا يسهل "، قالت لنفسها: "عودى للخير، صديقتك أعطت الحياة لذاكرتك المفقودة، وتعرف ما بينك وبين "يحيى" ولا يمكنها ارتكاب الخطيئة ".

تعيش " مديحة" حياتها بالطول والعرض ؛ فأسرتها الثرية وفرت لها سبل العيش الرغيد ، فاختارت حياتها بطريقتها، أنهت دراستها بالجامعة الإنجليزية ، وعملت بالصحافة شهورًا كثيرة، تركت التحقيقات الصحفية لتعمل بالجمعيات النسائية لتدافع عن حقوق المرأة فى ارتداء الملابس الفاتحة والتزين والحب، اختلفت مع صاحبة الجمعية حول تمويل واتجاهات حملة الشرف والختان التى أدارتها بكفاءة، فى النهاية تركت الملة لصاحبة الجمعية لتتكسب كما تشاء من التجارة الرابحة بقضايا المرأة ، لكن الشيء الذى اضطرها إلى ترك المجال كله هو موافقة رئيسة الجمعية على التنسيق بالحملة مع ممثلى العصابة فرفضت وأجبرها الموقف المَشين للجمعية بالموافقة على اقتراحات وتدخلات العصابة فى اختيار المرشحات والمرشحين ووقت الحملة للهروب بعيدًا .

بعدها عملت "مديحة" شهورًا ببيت اللقيطات، تعلمهن طرقًا مبدعة للقراءة والكتابة، شغلت وقتها بأشياء مفيدة، إلى جانب إعدادها رسالة الماجستير حول اللغة الشعبية والتاريخ الشفهى وعلاقاتهما بالاستعمار ، تأثرت كثيرًا بتجربة المجدلية فأصبحتا صديقتين حميمتين، نامتا بمنازل بعضهما البعض ، وتعرتا من كل القيود كنساء مقهورات ليغطيا بحب على أوجاعهما.

تثق المجدلية بتحررها من كل القيود، فيمكنها النوم بحضن أى رجل ترغب فى معاشرته ؛ لأنها تخطت الأسقف المنخفضة منذ نعومة أظافرها، مع ذلك حين سمعتها تواعد " يحيى"، أحست تجاهها بالحقد، انزوت وحيدة بحمام المقر باكية، وعادت وحيدة إلى منزلها دون وداع أحد.

رحلت أمها للبلدة البعيدة عند أهلها منذ يومين، دخلت المطبخ لتتناول الطعام، ينتظرها طبق الجبن القريش والعيش "السن "، بقايا خير أهلها، أكلت لقمتين ودخلت فى نوبة بكاء دون سبب، قائلة لنفسها: " لن يمر اليوم بسلام "، حاولت النوم فعادت الشياطين لتلبسها، لتتخيل "يحيى" بأحضان صديقتها، اتصلت بتليفونه لم يرد كعادته، قررت النزول غير عابئة بالمصير.

ركبت المترو ونزلت المحطة القريبة من شارعه، دخلت باب منزله وصعدت السلالم الطويلة مسرعة، فتحت شقته بمفتاح الأمانة الذى وضعه فى حقيبتها، حتى لا تنتظر حضوره أمام الشقة فى كل زيارة.

أذهلها صوتها وهى تحتضنه بأنتريه الصالة، الشبق الصارخ المشع من عينيها الملتهبتين يسبق تأوهاتها، اقتربت من أقدامهما العارية الملتفة برقة حول بعضها البعض، سارت نحو أعماقهما البعيدة، رغم ذلك لم يحسا وجودها.

انتظرت دقائق تتأمل وجه رفيقها، تحسرت للحظة لاعتقادها يومًا ما بأنه خليلها، خرجت مسرعة، مغلقة وراءها الباب بكل عنف، صرخا بنفس واحد: "مين "؟ لحقها " يحيى" على السلم، مناديًا باسمها كسراب، لم تلتفت ناحيته، سمعت "مديحة" من الداخل، تقول بفجر: "نسيت نفسها المجنونة لتفتح الباب دون استئذان !"، تخيلت وهى فى الشارع عودته إلى أحضانها غير مبالٍ بكسر قلبها، اعتقدت نادمة بأنها الوحيدة التى احتضنت قلبه برقة وعشق، نسى الرفيق النقى رحيقها السامى وإخلاصها لوعوده.

رجعت إلى منزلها تستعيد ما جرى، حاولت يائسة تفسير عيوبها التى دعته للبحث عن الحب بعيدًا عن قلبها.

اضطرها خبر إلقاء القبض عليه بعد أيام وهو يتقدم مجموعات تنادى بتوفير الخبز، لقطع أحزانها والعودة للمقر، غير عابئة بالخيانة، زارته مع رفاقه بالسجن، قال فى الثوانى القليلة

التى اختلى بها خلف القضبان: "سامحيني"، ردت بحب: "أنت ملاكى الملهم"، أملت فى تخفيف قيوده فى الليالى الطويلة التى سيقضيها وحيدًا.

نشطت كنحلة بالحى تُعلِّم الأهالى سبل مواجهة العصابة وطرق احتيالها ، فرشت مجلات الحائط وسط الشارع، ناقشت المارة والجيران بطرق نهبهم لبراءتهم وعرقهم، مصمصت النساء شفاههن، وقالت إحداهن بغبن: "يختى شوفى شغلانة مفيدة، ساعدى أمك الغلبانة" صرخت فيها محاسن زوجة خالها " يوسف": " اتلمى يابت علشان ربنا يرزقك بابن الحلال ".

لم تسمع تعليقاتهن المخزية، أصرت على استكمال الطريق قائلة لنفسها: "حياتهن فى كفة وإزالة الخوف من روحى فى كفة أخرى، نست غدر مغتصبيها ونكرانهم لحقها كامرأة، مقررة تحدى الخوف وفك القيود لإعلان براءتها.

النشاط الدائم المتدفق بروحها يزداد، توطدت علاقاتها بالكثير من الفتيات الراغبات فى الأمل، خسرت الكثير من الجيران الذين اعتبروها خارجة عن ناموس الحى، قبلوا ذلك باعتبارها مجنونة ؛ إذ سبق اختفاؤها خلف أسوار المصحة لفقدها الذاكرة.

أصبحت كلمتها كالقول الفصل فى كل خلاف يظهر بين رفاق المجموعة، سار وراءها متعاطفون وأعضاء كثيرون، متمنين فهم خبايا قلبها المفتوح بالحب، تمنوا عدم مفارقتها لأرواحهم إلى الأبد.

الأحداث تتسارع لميلاد يوم فارق ، دُهِشَ قادة مجموعة المساواة بنضارتها وإخلاصها وصمودها ضد أنصار الظلام، أُعجبوا بإيمانها بأفكارهم وقالوا لتصعيدها إلى القيادة: "لم نكن نصدق أنفسنا وفلسفتنا الميتة، حتى طالعنا وجهك الصبوح وأنت تعلنين التمرد ضد أتباع العصابة !" .

دخلت مناقشات عقيمة معهم حول تاريخ القهر وفحش الفُجر، لم تفهم مصطلحاتهم المفزعة، لكنها واجهت الأوباش دون استخدام طلاسمهم الغريبة.

داروا حولها ككلاب يتشممون رائحتها، تمنوها على أسرَّتهم، تدلدل لسان قائد المجموعة على ردفيها الممتلئين ناظرًا إلى صدرها الفتان، قائلا بتعالٍ كاذب: "فلان بيه صديقى يمكنه

تمرير ورقك لتحصلي على شقة بالمدينة الجديدة " ، سألته بدهشة : " ما علاقته بالعصابة ؟ ضحك عن آخره قائلاً : العصابة مخترقة كل شيء !" .

وصلت إلى مرحلة جديدة لم تتوقع قط القيادات العليا بلوغها، دهشت من نفسها وهي تجالسهم كميتة، لم تحس بأرواحهم رغم حضورها الدائم اجتماعاتهم، تشاجروا مع بعضهم كصبية بالحارة، اختلفوا حول معنى المساواة، فشلت في وقف الاشتباك الوهمي، استأذنت لتلتقي إحدى فتيات الحي ومجالسة أخيها، مستمتعة بمشاهدة فيلم "الأب الخائن "، اتفقوا رغم خلافهم الدامي على صرف مكافأة كبيرة للبتول ؛ لتفرغها لإدارة المقر، وملء صفحات المجلة السرية بأخبار الحي وطبيعة صراعاتهم.

أضحى المبلغ كافيًا لشراء ملابس "زكريا" الطيب وكتبه ، قررت الأم تفرغه للمدرسة ، وترك عمله بالورشة، فوافق على الفور لأن الأسطوات لمَّحوا مؤخرًا بسخرية على تبرج أخته وجنونها، كشفوا بشماتة عن ضعفه بترك قاتلي والده المصري أحياءً بعد تدخل الشيخ " رشدي" مع ممثل العصابة ليقيد القضية ضد مجهول ، كتم الحزن داخل نفسه لعدم تمكنه من الأخذ بالثأر ، وتغطية صدر أخته العاري.

خرج "يحيي" من السجن إلى مقر المساواة ليقدم اعتذارًا عن خيانته، معتقدًا بإعادة مياه الحب إلى مجاري البراءة، لم يكن يعلم بقدرتها على إقناع قيادات المجموعة بأفكار جديدة تفوق تصوره، شكك في براءتها متخيلاً ممارستها الجنس معهم، لمعرفتها بتاريخهم وطبيعة صراعاتهم، جالسها ساعتين يناقشها في خلاف المجموعة والتعرف على رؤيتها، فُوجع بانحيازها تجاه خصومه، تيقن من اتهامها بمعاشرتهم؛ إذ كيف لامرأة أن تفهم كل هذه الخيوط المتشابكة، وتعرف طرق الخروج الآمن للمجموعة إلا بفتح فرجها لكل عابر سبيل؟!

تخيل الرفيق نومها على أسرَّتهم بدعوى النضال، عرف بخبثه ودهائه إيمانها برؤيتهم للخلاص من استبداده، اشتد الصراع بين المجموعة حول دورها المشبوه، تشابكوا بالأيدي بدعوى طبيعة المرحلة ودور المسلم والمسيحي في الصراع ، نشروا رائحة غسيلهم العفن على الملأ، لن تحتاج العصابة مرة أخرى لزرع مخبرين بينهم، أعلنوا بدناءة أسرار علاقات القيادات العليا المتشابكة والوطيدة بنساء المجموعة، عرف أهل الحي حقيقة دفاعهم عن تبرج الفتيات، لكن البتول قالت لخصمها الجديد "يحيي": "يا فاجر، أنت تابع ، مرضتَ بالعهر المستديم ولن تُشفى منه أبدًا، لم يمسني أحد، أختلفُ مع أهدافك وطريقك الواهي ".

بعد يومين قررت القيادة غلق المقر بعد انتشار فضائحهم، وتطاول الصنايعية وأصحاب الورش على الفتيات وهن يدخلن المقر، لتعليم أطفالهم معنى الوطن.

الجميع يعرف أن "يحيى" هو المسئول عن تمويل المجموعة، أوقف صرف المكافأة للمجدلية دون إنذار، قائلاً: "لن نعطى خصومنا الأموال ليحاربونا"، أصدرت المجموعة قرارًا بفصلها لجنونها، اتهموها بنشر خصوصيتهم وسط الفواحش وأعداء الشعب، رغم تعاطف بعض الرفاق مع مواقفها، لكنهم لم يجرأوا على مواجهة طغيانه ؛ خوفًا من قطع أرزاقهم بالجريدة، وغلق المقرات الأخرى التى يصرف عليها من أموال مجهولة، يدَّعى إرثها عن والده الباشا.

تذكرت حكمة خصمه الذى آمنت بموقفه قبل اعتذاره وتوقيعه على وثيقة الندم حين قال : "حتى لو كانت أموال أبيه، فإنه سرقها وركمها من دماء المجروحين على مر السنين "، تذكرت المثل الشعبى القائل: "إذا وقع الجمل كثرت السكاكين لنهش لحمه"، لإطلاق رفقائها الإشاعات بينهم، حول كونها عميلة للعصابة.

قال أحدهم والرعب يملأ قلبه: "شاهدت دخول أحد الضباط بالمقر فى الأيام الأخيرة قبل غلقه ولم تطرده، نظر إلى وجوهنا فى النور فتعرف علينا ".

أعلنوا مسئوليتها عن كشف أسماء الخلايا السرية المنتشرة وسط المصانع والأحياء ، لامتناعها عن أخذ القرار الصحيح فى الوقت المناسب، فألقت العصابة القبض عليهم الواحد تلو الآخر، تجاهلوا إعلانهم الفضائح على الملأ، ليحكى المارة والجالسون على المقاهى الخلاف الوهمى حول المساواة.

ادعوا معاشرتها لأغلب الأعضاء ، وتحريضها للأهالى لطردهم من الحى، تحدث رفيقها خصم "يحيى" عن ماضيها، لطعنها بخنجر بارد ، لرفضها معاشرته بعد إعلان الوحدة ونشر وثيقة الندم قائلاً : "الشرموطة كانت وراء كل صراعاتنا وخصوماتنا"، هنأ الجميع أنفسهم للعودة كرفاق متفقين مرة واحدة طوال تاريخهم على قرار "طرد العميلة من تنظيم المساواة".

حضر خالها منزلها لعلمه بالحكاية من الجيران، مهدئًا روعها قائلاً : "أصدقائى بالكنيسة وجدوا عملاً صالحًا لتعويضك، ستعلمين أطفالهم القراءة والكتابة دون فضح آبائهم ".

رغم ضآلة المرتب، لكن " رحمة" أمها تمكنت من تدبير الوجبات الأساسية بدعم الأهل بالبلدة الذين ملأوا البيت بالجبن القريش والعيش البلدى، ليضمنوا عدم الموت لأسرة أخيهم القتيل.

أصبحت أيام الكنيسة أملاً أخيرًا لشفاء روحها من رحلتها بالمقر ، ونسيان رفاق مجموعة المساواة، تعرفت بخجل على "نجلاء"، رغم دينهما الحنيف الذى يمنع نشر الفضيحة والتستر على الخطيئة، فاجأتها حين قالت على غرة بعد لقائهما الأول والنظر إلى شعاع عينها: "نعم ارتكبتِ الخطيئة مع رواد المقر وتسببتِ فى إغلاقه ".

لم تغفر تطلعها لنيل حقها كامرأة، نسيت حكمة الرب الذى أدان كذب شعبه بمقولته الخالدة: "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر"، تمكنت بطاقتها الخلاقة من تعليم الأطفال معنى السلام ، قبل الأب "زخارى "بعملها كسند لوقف هدم منزل "رحمة" الآيل للسقوط، استمرت شهورًا بعملها الجديد، استعادت توازنها لتطبيب جروحها المندملة، هالها فضاء الكنيسة فى أثناء دخولها من البوابة العتيقة، استمتعت بمنظر الأعمدة العالية وبراحها المذهل كمؤمنة ببراح الرب المنتشر فى الأعالى، أعاد صوت الجرس المنطلق أيام الآحاد الأهالى المختبئين بمنازل الحى ليدخلوا الصالة الكبيرة للاعتراف وتلمُس الرحمة من الأب المقدس، لتستعيد الأعمدة ضياءها، أضحى صوت الأب كل أسبوع إعلانًا عن التطهير الذى يجب أن يتم كل دقيقة بحى الشهداء الممتلئ وجوهًا قاسية مرعبة ملئت النواصى والحوارى بالدم.

لكن الحياة عوّدت المجدلية على القسوة ، فحين امتلأت روحها بالسلام ، عاد الشر المخيف يحوم حول قلبها ، لرفضها مرافقة أحد التجار الجدد بالسوق، صرخت بوجهه وسبته، مرت وسط المقاهى غير عابئة بسفالة الرواد ؛ فقرر أصحاب الورش الوشاية بها لممثل العصابة متفقين على الرد القاسى لامرأة مسالمة، ذهبوا فى اليوم التالى للأب "زخارى"، ليعيدوا سرد حكايتها تحت سقف بيت الرب، ليقرر "زخارى" بخسة بعد سماعه الحكاية طردها دون شفقة أو سماع نصيحة الرب بدعم المحرومة.

قال الأب الزاهى بقفطانه الأسود لامرأة حزينة: "يمكننا المنَّ على أمك وأخيك "زكريا" كل شهر ببعض العطايا، لكن لن نسمح لأن تنجس رائحتك مبانى الكنيسة مرة أخرى يا مجنونة "، تحول وجه القسيس الطيب إلى ذئب متوحش، منطلقًا من دفاعه عن بيت الله الطاهر ، رفض بقوة

وصرامة تدنيس قدمى ديوثة مملكة الرب الخالد، خرجت من حجرته المقدسة، قائلة لنفسها: "لا يهمنى ناموسه، أى إله ظالم يمكنه المشاركة فى ظلم العباد والأبناء ليحرمهم الأمان والسلام بدعوى الطهارة؟!"، "رزعت" بابه المفتوح غير عابئة بمصيرها.

سألت نفسها ببراءة: "أيرضى الأب " زخارى" لابنته الوحيدة " ماريا" التى يحتضنها ويراكم لها الأموال أن تُلقى بالشارع بدعوى النجاسة، أم أن الله الذى فوضه بالتحكم بكنيسته ، يعطيه الحق فى إدارة بيته بطريقة أفضل من بيت الرب؟!" .

علمت من زملائها بالكنيسة أن زوجته تخونه لنسيانه ليالى الآحاد المبهجة منذ زمن طويل، قبل على غضاضة عشقها لعامل بالكنيسة كتعويض عن شرهه وقسوته، آملاً فى اعترافها قبل الوفاة على يديه.

سارت نحو الشارع مهرولة للمجهول، سمعت أذان المغرب منطلقًا، يبشر العالمين بالصلاح والفلاح، نظرت ناحية المئذنة العالية لإعلانها الأمل والنجاة، شاهدت لافتة مكتوبة على الباب الخلفى للمسجد. " مطلوب آنسات حسنة المظهر لتعليم الأطفال "، أيقنت بأن الله موجود ليحمى عباده الطيبين.

دخلت مطمئنة لرحمته، ارتعش الشيخ "سعودى" بعد سماعه صوتها وإلقائها السلام، رد بصوت عالٍ دون سبب: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم !"، قال ناظرًا بعُهر إلى صدرها المفتوح: "غطِّى شعرك يا أخت"، لملمت نفسها لتخفى مفاتنها من نظراته الفاجرة، قالت متوسلة كتلميذة بليدة ليقبلها الناظر بالمدرسة بعد رسوبها: "أرغب فى العمل بحضانة الجمعية الشرعية".

استعاد توازنه، فاتحًا ذاكرته لأعماقها المخزية، قائلاً بسخرية: "أنت "مريم" مديرة مقر المساواة؟"، فقالت بثقة: " كان ذلك قبل إغلاقه من شهور".

رد العارف بأمور الله: "ألم تعملى بالكنيسة وقام "زخارى" الأب بطردك" ؟ دهشت "المجدلية " للتواصل الغريب بين خصوم الله فى العبادات، ردت بصرامة: "كيف عرفت يا شيخ؟" ، ضحك قائلا: "العصابة تمنع تشغيل المتبرجات بالمساجد، إضافة إلى هذا الشرط الصارم، فإنه لا يجوز لامرأة تنجست قدماها بتراب الكنيسة المعادية لوحدانية الله، العمل بمسجد ينادى خمس مرات بأن الله واحد لا شريك له".

ردت ببراءة: "سأعلم الأطفال تهجى حروف الرحمة والصدق والإيمان، ليس لى دخل بالوحدة والعصابة يا سيدنا الشيخ"، نظر بسخرية إلى صدرها المفتوح، قائلا: "علِّمى نفسك أولاً أخلاق الصحابة وآل البيت ، وخلاف ذلك فأنت لست آنسة "، قامت غير مترددة، مسرعة تبحث عن باب مسجد الله الطاهر حتى لا تنجس رائحتها أرواح الطيبين أمثال الشيخ الذى يحبس نساءه الأربع بمنزله بدعوى حقه فى معاشرتهن دفعة واحدة تطبيقًا لشرع الله، تيقنت بعدالته النائمة وغفوته الطويلة منذ سنوات كثيرة، لرفض حراس بيوته تشغيل امرأة مسالمة ترغب فى إطعام طفل لم ترزق به، اسمه "زكريا"، وأم حُرمت من تشمم رائحة الرجال سنوات طويلة بدعوى الإخلاص لوعوده بالجنة.

الشىء المؤسف أن الشيخ "سعودى" اتصل بالتليفون أمامها ، وأخذ الإذن بطردها من الشيخ "رشدى" قاتل والدها ، رغم عدم فهمها لعلاقاتهما بالعصابة، لكنها أحست غدر أصحاب المساجد بالمسالمين فى حى الشهداء الذى تحول إلى ساحة حرب، كأنهم فى المعركة الأخيرة لحرق الخير بقلوب البشر.

ذهبت لمنزلها كأمل أخير للنجاة، وجدت الشقة مغلقة، حاولت إخراج المفتاح من تحت بلاطة السلم، خرج الجار قائلا باستهزاء فى وجهها: "أمك رحلت للبلد منذ الصباح الباكر وأخذت معها المفتاح، خوفًا على "زكريا" من غضبة الحى "، بصق على الأرض ناظرًا بغل إلى عينيها واستكمل: "أنتِ مازلت تائهة وسط فجورك، متى تعودين "مريم" المجدلية رمز الطهارة كما عهدناكِ؟"، نظر بقرف ناحية ردفيها الممتلئين وأغلق بابه، قائلا: "اللهم احفظنا!".

سمكرت الدنيا أبوابها أمام امرأة كان كل أملها أن تنام آمنة تحت ظل رجل، رفضت بخسة طموحها للعيش بسلام، أعطتها الدروس والعبر بنكران أقرانها وأحبابها لبراءتها، بلغتها الرسالة بجرأةٍ تعودها البشر هذه الأيام: "لا مكان لوجود الأطهار وسط الحى المملوء غشًا".

يخطف القدر أحلامها ويهرسها، فوجئت بواقع جديد مرعب، يجب أن تختار طريقها من جديد، نظرت حولها بأسى، نزلت درجات السلم غير عابئة بالأسوار والأبواب المغلقة، قالت بثقة: "الخيارات كلها سيئة، لا بديل عن النهاية ".

"عودة المحرومة "

سارت وحيدة للمجهول ، مرت من خرم الإبرة متجاوزة النسيان، لتحقق حلمها فى كونها امرأة، شاركت الناجين من الفتك المحقق والتمثيل بجثثهم جراء إعلانهم الحلم وسط الأموات.

عبرت الشارع متذكرة لحظة الوعى بميلادها حتى نهاية النفق وهجرة "رحمة" للبلدة البعيدة، أغلقت الدنيا أبوابها بحائط سد منيع، تمنت تخطى الملاذ الأخير، تقرر الأم حرمانها بدناءة من النوم فى سريرها بدعوى تأمين حياة "زكريا" الطيب، أغلقت الشقة بالضبة والمفتاح، وعادت إلى البلدة لتضمن لأخيها العيش وسط أهله، نست تغطية ردفى ابنتها الوحيدة، دهست حلمها بالنوم تحت سقف حجرة، لتعلن براءتها من جنونها ، وتضمن لأخيها المستقبل المضمون وسط عشيرته .

رحلت بضى عينها إلى حجرة زوجها المقتول فى منزل العائلة المنسية بالبلدة البعيدة، محققة شروط أعمامها: "لا تحضرى معكِ "مريم""، هكذا قال العم الكبير وصيته لرحمة إذا رغبت فى العودة.

سارت مسافاتٍ طويلة بالحوارى، متذكرة الأسى خلال رحلتها الماضية، المشاهد تتوالى: "يونس" ، و"إبراهيم" ، و"يحيى" ، و"هارون" ، و"يوسى" .

الأماكن والمدن التى آوتها بصحبة " سلطان" تعود إلى ذاكرتها وتختفى، يظهر شاطئ بحر المدينة الساحلية المملوء عشقًا كأمل أخير، سماء مقهى النهر الخالد المنتشية بالورود والأنوار تجعل تشمم مياه النيل كأحلام العذارى، يتجهز فندق " نعيم" المبهج بكراسيه الخيزران لاستقبالها كأميرة لتدخن الشيشة مع الكابتشينو ، انتشرت فوقها ألوان ملايات الأسرَّة بالشقق الكثيرة التى نامت فيها مع أغرابٍ، ادعوا صداقتها سنوات طويلة، أغلقت "رحمة" بيأس الباب الوحيد أمامها لتقول بجفاء: "ليس أمامك إلا الشارع يا مخبولة ".

لم تتمكن من المرور على خالها "يوسف" بعد اتفاقه مع الشيخ " رشدى" واستيلائه على المحل ، وزواجه من مطلقة ، دأبت على هزيمة الرجال، أخلعته ملابسه فى الشارع لفضحه بعدم كفايتها، بات يعمل ليل نهار ليوفر ثمن لباس دمور ليدارى عورته، أطلق لحيته غير عابئ

برحيقه الجديد المنفر للنساء، قاطع الجميع باستثناء المرأة التى قهرت جمال عينيه كثمن لطمعه فى محل أبناء أخته اليتامى، عاش الباقى من عمره مواظبًا على التعبد بمحرابها، أنجبت له طفلاً، يعرف الجميع أنه من صلب رجال آخرين.

تمكنت منه " زوبة" ذات ليلة شتوية ممطرة، دخلت المحل، فتحت قلبها بشبق ليأخذ مقاسات ردفيها ، تحسس حلمتى ثديها وهو يضع الشريط فوق سرتها، دخلت خلف الستارة وقطعت جسده بأظافرها، اغتصبته مفتونة بأنوثتها، فخلبت عقله بشفتيها الممتلئتين وفرجها العطشان، اكتفى كل ليلة بشبق المحرومة من الحب، ونسى أخته وابنائها وزوجته الأولى " محاسن".

تمنت " مريم" فجأة مقابلة الشيخ "مرزوق" وزوجته "بهيجة" اللذين استقبلاها بشقتهما الرائعة أيامًا طويلة، مداها بالماء لتطيب جفافها، ليعيدا هويتها، نامت بحضنهما كابنة بريئة حتى عادت إلى أمها وحيدة.

تقابلها بأول الشارع تجمعات لبشرٍ قرروا الموت، يصرخون ويهتفون رغم عيونهم البائسة بسقوط العرش.

وقفت مذهولة من هديرهم، هزت أصواتهم جدران الحوائط، صحا الميتون القابعون بالمبانى الكئيبة، ناظرين بعيونهم من الشبابيك، فتحوا "شيش " البلكون ليسمعوا إعلان النهاية، التحق بهم الصامتون مبهورين ، غادروا منازلهم ليلحقوا بتجمعات الهادرين لاكتشاف طريق النجاة.

سارت مختبئة وسط الجموع، تتقاذفها الأيادى والأقدام والعيون، رددت فجأة وراءهم الهتافات بسقوط العصابة.

سمعتهم يقولون: "باطل _"عز"، باطل _ "نظيف"، باطل _"العادلى"، رددت بصمت وراءهم: "باطل _"يونس"، باطل "يحيى "، باطل "هارون"، باطل "إبراهيم"، باطل، "بوسى "، باطل كل أولاد الزوانى الذين سرقوا بسمة الفتيات اللقيطات ببيوت العهر فى كل المدن".

تصرخ الجموع وتردد: "يا بلدنا يا تكية، يا نهيبة، سرقوكِ الحرامية !"، تذكرت محسورة بصمت، حرمانها من المبيت فى حجرة آمنة بمبانى المدينة الكبيرة، تسرسب الخوفُ رويدًا رويدًا

من مسمَّات جسدها للفراغ الهادر ، هتفت وراءهم بصوت عالٍ، رددت بقوة صراخهم مدافعة عن حقها الأخير بموقع قدم فى هذه البلاد المنسية لتحتفظ بحياتها تحت الشمس.

التقت الجموع فى الحوارى، ملأت شوارع المدينة، وقف جنود العصابة مذهولين من صدى هدير الصوت، فرمت أجسادَ الهادرين كتيبةٌ مدججة بالرصاص والسيارات المجنزرة، أطلقوا قنابل الغاز لوقف زحفهم نحو المجهول، هرسوا كُلَى البشر وكبدهم وعظامهم دون رحمة ، أو سماع دعاوى وصراخ الأمهات على ضى عيونهن المفقودة، ازداد هياج الناس، انطلقوا وسط الدخان والرصاص، باحثين عن الموت وسط خرائب المدينة المجروحة .

هرب الجنود، تاركين الأقسام مفتوحة أمام الهدير المرعب بالخلاص، قررت الجموع حرق القيود الباقية فى ليالى الظلام، وجدت نفسها وسط مجموعة تمنع جنود العصابة من دخول شوارع حى الشهداء.

التحقت بمجموعة أخرى تبحث عن الأمل، سمعتهم يصرخون: "حرمونا النوم، حرمونا الحب، حرمونا العيش والحرية"، سارت وراءهم متمنية تحقيق حلمها فى ملاذ أخير، أخذتها قدماها لتتقدم المسيرة، هتفت بقوة رغم البكاء والتعديد لتنزع الخوف من أرواحهم: "ارحل".

تذكرت حبيبها "سلطان" الذى تركها وحيدة لتغلق الدنيا فى وجهها كل الأبواب، فصرخت: "ارحل، لم يعد بقلبى مكان لخداعك".

رفعت لافتة كبيرة أمام المسيرة، نُقِش عليها: "عيش...حرية...عدالة"، سرقت حقيبتها الفارغة رغم يقظتها، انقطع اتصالها بالعالم بفقدها التليفون، لن تسمع مرة أخرى رنات تليفونها التى لم تغيرها: "أكدب عليك ".

ضاعت كل أرقام العهر والغدر بماضيها للأبد، لن تتذكر أحدًا منهم مرة ثانية، لن ترى أسماءهم على شاشة التليفون، لن تفتح سماعة الصوت لتستمتع بنبرات عشقهم الكاذب، لن تردد مرة أخرى وهى تنوى الاتصال بأحدهم ، لتفاجأ بغلق التليفون فى وجهها ، لمدعين أدمنوا خداعها ، لن تحزن عليهم وهم يدهسونها بقذارتهم، بردهم المحايد على صوتها: أنا "مريم المجدلية"، قائلين بخسة: "مريم" مين حضرتك ؟!"، لن تسمع صوت وقاحتهم للأبد.

الجموع الشاردة الباحثة عن موقع قدم تدفعها إلى التقدم، أخبار العصيان والغضب تتناقل بين الحوارى والمدن، الهتافات ترتفع بسقوط الشوارع والمتاريس ، سمعت "البتول "أحد الرجال مهددًا بعينيه الصفراوين، قائلا: "ستسقط مبانى المدينة، يجب وقف صراخهم"، ردت بشعاع متمرد كاد يفقأ عينه: "فلترحل العصابة بقصورهم وضباطهم، لم يكن لنا منازل للخوف على هدمها ".

الشائعات تنتشر بخروج النمور من الأقسام بفعل فاعل، ادَّعوا بأنهم أنصار اللهو الخفى، أطلقت العصابة المرشدين السريين ليرعبوا الناس فى شققهم ومحالهم.

الليل يرخى سدوله على الأحياء والشوارع التى لا تعرفها المجدلية، الجموع تخفت صوتها ، تحت وابل الرصاص المنطلق من صناديق سيارات نصف نقل ، تدخل وتخرج فى الحوارى والشوارع ، لِبث الرعب فى قلوب الآمنين، الصبية والرجال يخرجون من المقاهى والخمَّارات، ماسكين السواطير ، يستوقفون المارة للتعرف على هويتهم، يسألون عن أماكن سكنهم ليسمحوا لهم بالمرور الآمن من لجانهم المفزعة، تلمع ألوان السنج الفضية والشماريخ البنية وفُوهات الطبنجات الصفراء، أصبحت الأسلحة كلعب الأطفال تُباع وتُشترى بأرخص الأسعار ، لتوافرها فى الأسواق بعد تهريبها من مخازن الأسلحة بالأقسام والثكنات الحربية، انتشرت البنادق بكل الحوارى بأيادى لجان الأمن الشعبية.

فوجئت بنفسها وحيدة فى حارة بعيدة، أوقفها أحد الشباب فاتحًا المِطْوَاة فى وجهها، قائلا: " أنتِ مين ؟" ردت بحياد غريب: "مريم"، استكمل آخر : "أين هويتك؟" ردت بقوة: "سرقها اللصوص"، تجمعوا حولها، ماسكين زجاجة مملوءة سبرتو أحمر ، تجرعوا نصفها مشتركين، نظروا إلى صدرها بعيون جاحظة، رأت علامات وجروحًا مندملة لآثار سكاكين قطعت وجوههم المشقوقة، قال أكثرهم إجرامًا بدناءة: "على فين يا حلوة؟"، ظهر المارد داخلها، تيقظت بحماس الهادرين فامتلأ وجهها غضبًا ، ليختفى المجرم من أمامها دون سماع صوت قدميه ، دار كالفأر وراء حصن العصابة الواهى لتمر من لجنتهم الشعبية، منطلقة داخل الحى المكتظ بالمجرمين.

سارت وسط الرعب ليلة بأكملها، اختفت الملائكة والأخيار وسط تجمعات الظلمة، شاهدت الناس يسيرون بالشوارع، غير عابئين بطلقات الرصاص المجهولة فى كل اتجاه، سمعت النساء من البلكونات بشعورهن المنكوشة يصرخن، لكونهن أحياءً فى مدن الموت، هرول عشرات الصبية سعداء بالعودة إلى منطقتهم آمنين، لم تتصور أن سماء المدينة ستمتلئ عن آخرها بالحيرة ليلة نزول الوحى، وخروج الهادرين مطالبين بالعدل.

أعلن الجامع القريب فى صراخ غريب أذان الفجر، بدأ النور يتسرب للكون لتختفى أسلحة اللجان التى نظمتها فلول العصابة لسرقة أرواح الأبرياء.

خرج الناس من الصلاة منتظرين الخلاص، رفضوا العودة إلى منازلهم بعد رؤية النور، ابتهلت بأصواتهم المنطلقة ووجوههم الآملة، العيون تنضح بالمحبة رغم دهشة القلب، يظهر شعاع الشمس فوق رءوسهم كعلامة وتاج للنصر، يتسرب النور بقوة، معلنًا نهاية الظلام.

تصرخ المجدلية فجأة وسط تجمعهم : "باطل"، يرددون لإعلان الأمل ، تعيد صرخاتها طُهْرَ الدنيا: "باطل . "إبراهيم"، باطل . "هارون "، باطل . "يونس"، ظلت ساعات تعلن أسماء ناكريها، والمجتمعون يرددون وراءها باكين على حزن الأميرة: "باطل".

أزاح الصراخ والهتاف القهر من أرواحهم، أعاد إلى قلوبهم البريئة لونها الطاهر الأبيض، تساقط المطر معلنًا تضامن الرب، فتحت النساء الشبابيك والبلكونات دون خشية من ظهور شعورهن عارية وصدورهن النافرة الناصعة للمارة، رددن بقلب صافٍ لهدم الأسوار وتطهير النفوس: "الشعب يريد....."، عشن بدون سقف أيامًا قليلة رغم طول نهارها وليلها، أيقنَّ أنهن فى أحلام رائعة، رفضن استكمال يومياتهن ليواصلن الابتهاج والأحلام أيامًا أخرى غير مسبوقة فى حياتهن.

نزل أولاد الشوارع ملتحقين بالجموع، الهدير المرعب يزحف نحو المبانى العالية، اختفى الملثمون منكسرين، حرقوا أسلحتهم ومجنزراتهم دليل خيانتهم، تسلقوا جدران القلعة التى آوت زعيمهم ليخفوا خستهم على مر العصور. نقلوا بخبرة العاهرة الشريرة، كبير اللصوص وأسرته إلى مكانٍ آمن، دفنوا تقاريرهم السرية المملوءة بالعويل والنبض الحزين ونبرة الأصوات البريئة فى مكان يعجز البشر عن الوصول إليه، أطلقوا ذئابهم معلنة فتح أبواب القلعة للغاضبين لحرق زبالتهم، أيقن البشر فى كل الدنيا جرائمهم المنظمة، حملت سيارات حربية أسرار الناس وهمس قلوبهم لتخفيها بسرية عسكرية خلف الجبال بالصحراء الشاسعة لتضمن طمس الحقيقة وإعادة السلب فى الزمن القادم.

أبدعت العصابة زمنًا طويلاً، استمر عُهرهم فى استبدال الوجوه والمجنزرات والقنابل أيامًا وساعاتٍ طويلة مرت عليهم كدهر، أنزلوا أعلام الدولة الساقطة من على المبانى الحكومية،

استبدلوا القادة بآخرين ليحرسوا سجونهم القديمة، غيَّروا كلمة الدولة إلى الوطن، كعلامة على استكمال مسيرتهم بالقهر في كل العهود.

اندفعت المجدلية وسط الجموع، ملتحقة بهدير الغاضبين، اختفى وجهها بين الملايين، ظلت أيامًا تهتف وتصرخ وتخرج من شارع وتدخل حارة، آملة في تحقيق حلمها في مشاهدة الملائكة وسط الميادين ، سارت مسافات طويلة دون تذوق الطعام أو الإحساس بالعطش، باحثة عن الرحمة ، رغم اليأس ورحلة القهر الطويلة، فإنها تذكرت وصايا "سماح" مرشدتها، لتتجاوز القبح وتنال النصر: "استمرى للنهاية، لا يهمك شيء ".

ظهور الطغاة

يعرف الحى عشق ابن حسان نجار الموبيليا للمال، كافح والده ليعلمه الصدق، ومات بحسرته بعد حبسه فى قضية نصب على أصحاب الورش وأبناء المهنة المقدسة، راكم أمواله بالتجارة فى أعراض الفتيات واللحوم الفاسدة، حمته أجهزة متشابكة فى مجالات الفن والجمارك والحجر الصحى، لتنمو ثروته ويقوم بدوره "وقت العوزة ".

رغم معاشرته " مريم" المجدلية، لكنها لم تفتح قلبها ليغترف سر السعادة لإدراكها عجزة عن رؤية بصيرتها، طلق زوجته أم أولاده سرًا ، خوفًا على وضعه الاجتماعى، ملأ حقيبتها برزم النقود ؛ لتظل أسيرة بشقته الواسعة. ورغم علمه بمرافقتها لحارسه تركها حرة لتستكمل تربية أبنائه، ظل يغدق المال عليها ليظهر فى الحى وسط اللصوص الجدد كرمز للمرحلة.

اشترك " إبراهيم" فى حملة الأجهزة التى طافت أرجاء البلاد لتشارك بالهزيمة، مرددة هتاف "اللى يحب .. مايخربش .. "، كون مع أتباعه فرقة راقصة لتغنى على أنغام حزينة وكلمات ألفها سماسرة تحت عنوان : " آسفين....يا ريس"، حشد فيها أبناء مهنة الجزارة وبهلوانات السينما والإعلام بعد قبولهم مقايضة مستقبل البلاد برزم الجنيهات المنهوبة، ملأوا كروشهم طعامًا مدعوكًا بعرق الصامتين، شارك مجموعات القهر لإجبار الحملان قبول الغفران، جلسوا بميدان الشيخ المحمود، مطالبين بعودة أفندينا لحكم البلاد ضمانًا لضخ الضحايا للعرق، وسلبًا لحياتهم برضا وسعادة.

نظفوه من صحيفة سوابقه، ليؤسس محطة فضائية، دعمته بقايا الأجهزة ليعلن انطلاق حزبه الجديد الحر الذى سيعيد بناء الحى العصرى، اتصل بفرق الأغانى المنتشرة بالملاهى والعاملين بمحال بيع اللحوم وعرضها، بدعمٍ من عشيقته "بوسى"، ليضمن الهتاف بحياته بمؤتمراته التى جابت أرجاء المدن.

اختارت الكوافيرة " إسماعيل" أمينًا للصندوق وكاتم سر الحزب، أدار الأموال بكفاءة لوقف انهيار شركاته لخبرته فى خدمة رجال الأعمال، دفعوا الرشاوَى لتشويه ماضى بلاد كانت تنعم بالسلام، ليستحق مكتب القواد عن جدارة اللافتة الأبدية " إسماعيل خدام البهوات".

تحول تاجر اللحوم ومنتج الأفلام الهابطة إلى ثورى مقدام، أطلقوا دعايتهم للمساواة بين المِلل والأعراف، لتعلن كنيسة حى الشهداء بقيادة الأب "زخارى" انضمام الشعب لخليفتهم الجديد

رسول المحبة، رغم عدم إيمان " إبراهيم " بالآلهة فإن الأب " زخارى" دعّم حملته لإغداقه بالمال على بيت الرب ليتمكن من شراء عمارة فخمة بمنطقة راقية كتبها باسم " ماريا" ابنته الوحيدة ، ليهرب من حساب شعب الكنيسة.

قال لزعيم العصابة فى اجتماع لمّ شمل المهزومين: "حرقوا مقرات أحزابنا "، رد ممثل الأجهزة بهدوء: "الإعلان عن تأسيس حزب جديد يضم الفلول والأراجوزات، أسهل من شرائك لصفقة لحوم فاسدة !".

عاصت العصابة كرامة الجميع بالوسخ ، اتهموا الكل بالتهرب من الواجب المقدس ليمارسوا بدعارة فائقة مهمتهم فى الاحتيال، بدعوى مشاركة فاقدى الإرادة والهوية فى الشر، تصارعوا على عوائد السرقة والنهب، انقسموا إلى عصابات، تخصصت فى كل ما يحتاجه الناس، أدى اختلافهم على عائد الدعارة، إلى طمع وتهديد عصابات السلاح بحرق الأحياء والأسواق، ليغمر الانتفاض البيوت والحقول والمصانع، كسر جشعهم الأسوار فخرج الضحايا، راغبين فى الحرية، يستنشقون هواء الحب، غير عابئين بالمصير.

نزلت الدبابات للميدان لتنفيذ أوامر رئيسهم الأعمى بالإخلاء الجبرى، استدعوا للمعركة فرسان الروم والعرب بخيولهم الفتية، جلبوا القناصة من جبال الألب ومنغوليا والأريزونا والربع الخالى، اتحدوا ليقطعوا ألسنة الغاضبين الصارخة بمحاكمة القتلة.

دخلت المجدلية قلب الميدان بعد ليالٍ طويلة عاشتها بحوارى الغضب ، آملة فى تلمس أسفلته ، باعتباره الملاذ الأخير لإنصافها، هدير الغاضبين يفتح المسمات التى انسدت سنوات طويلة، لينقشع الظلام خائفًا من الطهر، الدهشة تعلو وجوه الفتيات الصغيرات وهن يتساءلن بذهول : من نحن ؟ يردد الغاضبون ويصرخون لحرق العرش، تتفتح السماء لتلبى نداءهم، تسمع الأمهات فى كل المدن والقرى الاستغاثات، فيرفعن أياديهن طالبات الستر وحماية أعراضهن من البطش، يمتطى فرسان منزوعو الرحمة الجلباب والغطرة السوداء ؛ ليخطفوا بهجة العيون، مقتحمين الحشود التى تهتف لإخراسهم، يشمطها فارس بالكرباج على ظهرها، مخفيًا مخطوطة " أم النور" بسرج حصانه، تجرى شمالا ويمينًا، تبحث عن شىء ضاع منها، وتتمنى إيجاده ، المنتفضون يتقاذفون الطوب والرصاص وزجاجات المياه المعبأة بالبنزين ؛ لوقف غدر الجمال التى هجمت على الميدان من كل صوب.

اندفعت وسط الغضب نحو الخيام تستنجد برفقائها، استقبلتها الدكتورة "مى " بالبالطو الأبيض، أخذتها بحضنها، قالت كأختها: "لا تخافى، لن يتمكن أحد من جرحك "، أعطتها كوبًا من الليمون، مغردة كأم بتول: "مش أنتِ مريم المجدلية زينة حى الشهداء ".

عاشت الطبيبة منذ إعلان الانتفاض بالخيام تداوى الوجع، تركت شقتها وعيادتها بالحى وقررت مداواة المجروحين، حاولت أختها منعها من المبيت بالميدان، لكنها قررت بتحدٍّ التفرغ لعلاج المصابين، قالت بإصرار لمواجهة طموحها: "أخذت الشهادة من أجل مد الناس بالقوة، إذا رغبتى فى رؤيتى فستجديننى رابضة بالمستشفى "، رغم أن " بوسى" دعمتها لتحصل على شهادة الطب بعد وفاة والدها وأمها، لكن الطبيبة الرقيقة اختلفت معها بعد عملها ، فقالت لها بأسى: " سأرد ما قمتِ بصرفه لإطعامى ودراستى بحسابك بالبنك"، حولت نصف مرتبها لتسدد دين "الكوافيرة " التى فجعت من إصرار الطبيبة على هدم حياتها الخاصة بدعوى دعم أهل الحى، رفضت الانتقال معها إلى شقتها الجديدة مقررة استكمال حياتها بشقة والدها.

تذكرت البتول وجه "سماح " مرشدتها، وهى تقول: "لا يهمك شىء "، لم تتراجع قط قرينتها عن مدها بالقوة، وكلما ازدادت حيرتها دفعتها نصائحها إلى التقدم، أى صدق وإيمان تملَّكَاكِ يا " سماح" يا خليلة الملائكة، وأنت تنظرين من خلف شباك حجرتك، قائلة للمجدلية: "للظلم دائمًا نهاية، ثقى بقدراتك، أهملى شرورهم وأذاهم، لن يتمكن أحد من تلويث روحك"؟!

عسكرت بخيمة " أبناء الموت "، أكلت الجبن والفول والعيش الحاف ، اقتسمت الأرغفة الطاهرة كالقديسين، ظلت مشدوهة بالصراخ والهدير رغم إلقاء السماء بأطنان المياه، فى إشارة من الرب إلى تطهير المدينة.

سارت تبحث عن الخلاص، لم يكن يشغلها سوى الانتصار ، أعجبت بفتاة صغيرة ربطت حول رأسها شالاً أحمرَ تصرخ فى المجتمعين لتفجع الخوف وتطهر الأرواح، عرف أبناء الموت قصة كفاحها، أشادوا بكرامتها لمرورها من الأحياء وسط القصف ليالى كثيرة، دون أن يصيبها أذى كلاب العصابة المخيف.

تعرفت على فتاة قوية خلب صوتها روح الانتفاض، تتواصل بطاقتها المتجددة مع الغاضبين، لتسلحهم بالإيمان وتزيد عزيمتهم وصمودهم، رغم أنها بنت وحيدة لأم فقدت زوجها منذ سنوات فى حادث سيارة، احتضنتها الأم حين خرجت من منزلها بحى الشهداء لتلتحق برفيقاتها قائلة:" سأزورك بالكعكة يا " نور " كل يوم وأحضر لكِ الطعام، حتى تعودى بالنصر ".

بهرت "نور" المجدليةَ وهى تذكرها بأمها " سعاد" التى حررت محضرًا ضد أمها " رحمة" لغش مسحوق الغسيل أيام محل البقالة، بكت " مريم" بأحضانها واعتذرت عن بيع المسحوق المضروب، لكن "نور" التى تعرف حكاية نكران الأم لم تقبل الاعتذار، وقالت بحب: "ليس لكى ذنب، الحى كله يعرف أن البضائع كلها مغشوشة"، أعادتها الفتاة القوية إلى أيام البراءة.

خرجت " نور" من الحى حاملة حقيبتها المملوءة بملابسها القليلة لتنام مع رفيقاتها، يعرفها زملاؤها بتهورها، تتقدم المتظاهرين لتعلن عودة الأمل، رفضت الارتباط بجنس الرجال حتى انتهاء دراستها واستقلالها عن أمها، لكن الانتفاض حول حياتها وأجل أحلامها لتضحى بمستقبلها من أجل أن تشم نسمة هواء نظيفة ، أضحى تليفونها همزة الوصل بين رفاق كثيرين قرروا نقل رسائل الغضب والانتفاض ومواصلة النجاح بصرف النظر عن غدر رجال العصابة.

بكى رجل بجوارها قائلاً: "الخرتيت يرغب فى السماح، لن نعود إلى بيوتنا قبل إعادة أرواحنا المسروقة، قتلوا ابنى الوحيد برصاص مسقوف من أعلى مدرسة حكومية، ذهبتُ للمشرحة لتسلم جثته ، لم أتعرف على وجهه، الجثث تعفنت، وضعوا برقبته تذكرة مكتوبًا عليها اسمه بخط باهت، لولا تذكر رفاقه بعد مقتله كتابة عنوانه على جبينه بالدم لما عرفناه وسط آلاف الجثث التى ملأت أكفان المشرحة "، مسحت "نور " دموعه، قائلة: "سنلتهم جثته قبل رحيله".

احتضن " مريم" رجلٌ عجوزٌ يمتلئ قلبه نورًا، فكان وجه الشيخ " مرزوق " الذى أعاد الذاكرة إلى أعماقها، قالت كابنة: "أين زوجتك بهيجة ؟، رد بأسى: "ماتت !"، استطردت باكية: "رممت روحى بدفء نورها، غسلت دمى برحيق المحبة "، بكى الشيخ لحديثها عن زوجته، طبطب عليها قائلاً: "لو عاشت لاختارتك دون نساء العالمين قرينتها ".

لم يتوانَ الشيخ " مرزوق" عن تقديم الخير للغاضبين، ترك المقهى الذى يمتلكه لصبيانه والتحق بالجموع غير مصدق خروج البشر من القمقم، مطالبين بتكسير الأصنام، تحول إلى عمدة أمين ليحكم سماء الغضب، أضحى وجهه الأبيض الممتلئ لحية وشاربًا كالملاك ليحمى أبناء الأحياء ويقوى عزيمتهم.

اكتشف الطاغية إصرار الغاضبين بعدم العودة إلى منازلهم قبل الخلاص من وجهه، فأعاد جلب وتنظيم أجهزته السرية لنشر الخديعة، أطلق ذئابه بالشوارع ليبثوا الرعب، ويفجروا الفتن،

ويهدموا الأمان، طلب القوادون بالمقاهى الصفح عن سنوات القهر، تمكنت العصابة بفعل خطاب زعيمهم – المعتذر للشعب عن ظلمه لكسب مزيد من الوقت – من تجييش فرق الصاعقة لقهر القلوب الطيبة وتطبيق خطة الاحتيال.

قال مؤذن الميدان واصفًا خسته: " النذل يكره قلوبنا الطاهرة حالماً بدهس براءتنا" ، ملأت دبابات العصابة الشوارع، ابتهج الناس بنزولهم بعد رؤية وجه كبيرهم المتفائل، أعتقدوا بأنهم سيعيدون أرواح المفقودين الذين ماتوا عمدًا، لكنهم غدروا وسط الظلام كالذئاب لسفك دماء الأنقياء.

تقدم أتباعهم بجنازيرهم وأسلحتهم، ممتطين البغال بزهو، ليقتلوا الأبرياء، لكنهم فوجئوا بالتحدى، فعادوا منكسرين كأبناء الشياطين، وبخدعة مكشوفة مسحوا دم الضحايا عن الأسفلت، زرعوا الشوارع بالورود الصفراء، فظهرت كأشجار الصبار والشوك، ليخرج الزعيم فاقد البصيرة فى اليوم التالى، معلنًا الأسف لوقوع مشاجرة بين أبناء الوطن الواحد واضطرار جنوده لفض الاشتباك ووقف إراقة الدماء، حرصًا على النسيج الصافى لربات البيوت والعجائز، وضمان دوران المكن والعجل فى أرجاء البلاد . سرد فى خطابه قصة كفاحه الطويل فى حماية الاستقرار، تغافل عن عمد دموع أمهات القتلى والمجروحين لفراقهم الأحبة بفعل توحش عصابته، فاستحق اللعنة والبصق فى وجهه المتحجر ساعة رحيله.

حاولت الأجهزة استعادة مجده، تمكنوا من احتلال بوابات الأنفاق، لكنهم عجزوا عن منع تدفق الغضب إلى الشوارع، رغم الرعب ومحاولاتهم استخدام كل وسائل الفحش دون رحمة، فإن الملائكة استطاعت مقاومة آثار أقدامهم الملوثة، وتمكنت من دق الخيام بالكعكة ليمتلئ الميدان بالملايين لتطهير البلاد من أبناء الشيطان.

رفع دفء الأنبياء وأرواح القديسين الخوف من القلوب، امتزجت دماء المولودين الجدد بالصرخات المطالبة بإسقاط العرش فى نهر متدفق هادر، ليضربوا بأقدامهم الأرض، وتهز صرخاتهم جدران القصور.

حطموا أسوار الأحياء فعاد الأمان ، فاضطرت العصابة للتراجع، حاملين وجوههم المرعوبة للوراء ، ابتهج بائعو البطاطا والشاى بالميدان كأنهم فى حى العشق الإلهى".

حين تَطَؤ قدمك أرض الكعكة الحجرية، تسمع حكايات عجيبة عن الخيانة وفجر العصابة ، وتحس بأن الأحداث تزلزل روحك، فتتشترك في الدفاع عن نفسك، لرفضك اغتيالك حيًا، تتجمع الدنيا فوق رأسك في لحظة واحدة، تحكي أصواتٌ قوية من كل اتجاه عن عرق الأرزاقية وسرقة الأراضي وبيع المياه ومدن الصفيح المختلطة بالضحايا ، يتداخل في ذاكرتك الماضي بالمستقبل بالأحياء المنسية، فيعجز عقلك عن إدراك سر أنين نساء المنازل طوال سنوات الحرمان.

تتجدد الحكايات، بأبطال جدد مدفوعين للأمل، رغم بؤسهم فإنهم يحملون الصور والشهادات والوثائق التي تؤكد صبرهم ، تحملوا وحدهم الغبن، كاشفين عن أمراضهم المتفشية والجراثيم المنتشرة بأجسادهم والمستشفيات المغلقة في وجوههم، لعدم قدرتهم على دفع ثمن غسيل الكُلَى وحقن الأنسولين بمستشفياتٍ يُفترض ملكيتها لهم.

تتردد حكايات مُخزية عن طرد صنايعية وزراع بدون رحمة من مصانعهم وأراضيهم؛ للاتجار في استيراد الغذاء، وجلب منتجات رخيصة فاسدة من بلاد الأسياد، يصرخ الجميع ليكتشفوا الكم الرهيب للنهب من عصابة السفاح .

حول الميدان باعة كثيرون يُعِدُّون الشاى، وآخرون يقومون بشوى الذرة وبيع الكشرى، أطباء يستقبلون الجرحى والمسنين ، وجوه غريبة منتشرة بكثافة لأجهزة تتلصص على روح المقاومة، لبشر خرجوا لملاقاة الموت.

الفلاحون بجلاليبهم الباهتة المدهشون من روح التحدى التى لبست الميدان، يجلسون على الأرض بأفواهٍ مفتوحة كأنهم يعيشون أحداث يوم القيامة، ترمقهم من داخل خيمتها فتتذكر نكران أهلها الذين اشترطوا على " رحمة " لعودتها إلى البلدة أن تنسى ابنتها، وقبلت أمها دون رحمة المقايضة، فأغلقت باب الشقة فى الليلة الأخيرة، وضعت المفتاح فى حقيبتها بعد أن تركت كتب " زكريا " المسكين وهربت، آملة فى كسوة وليدها العريان.

شاهدت مريم ضابط الأمن السياسى الذى اخترق مقر المساواة بحى الشهداء، وتمكن من تصوير رفاقها بوشاية صاحب الورشة الذى رفضت أن تكون جاريته على زوجاته الثلاث ، تمكن من نشر الأكاذيب بالحى ليشك رفاق مجموعة المساواة فى براءتها، ويتمكن فى النهاية من غلق أبواب الرحمة المفتوحة فى السماء، ويوقف تعليم البنات والصبية الأنقياء الموسيقا والحب.

أمسكت بتلابيبه، صارخة: "أنت الواشى بأصدقائى "، أمسكه الغاضبون من رقبته، اطَّلعوا على هويته، أدخلت أصابع يديها إلى عينيه ليعيش الباقى من عمره أعمى القلب والبصيرة، تمنت رؤية الأب " زخارى " والشيخ " سعودى " لتقطع لسانيهما .

تحسس قلبها أحد الذئاب الذين حرموها العمل الشريف بدعوى خدمة رجال الأعمال، اقترب منها قائلاً: "عاملة إيه يا " مريم" ؟، الدنيا اتغيرت بعد الثورة، أغلقت محلى وتفرغت لإدارة صندوق الحزب، وثقوا بى فسلمونى الأموال للحفاظ عليها من اللصوص ".

صمتت فى البداية لعدم تعرفها على سحنته الجديدة، لكن ذاكرتها عادت سريعًا فتذكرت الكوافيرة، قطع صمتها قائلاً: "المجرم لازم يرحل "، نظرت بقوة إلى وجهه المهزوم، تلمست قلبه المخادع ، وقالت بثقة: "متقلقش صوتنا وصل لسريره وحرمه النوم، لا بديل عن رحيله"، رد بلزوجة: "بس مين يمسك البلد يا أم النور؟"، قالت بسخرية لتبتعد عنه: أمى "رحمة جاهزة للمهمة، لا تقلق !".

سارت وحيدة وسط المجتمعين، زجرها رجل مخنث قائلاً: "ألا تعرفيننى؟"، نظرت بقوة لنن عيونه، دخل شعاعه الخائف روحها ، فاخترقت الزمن واستعادت نبرة صوت القواد قائلة: "أنت " سليمان " رفيق " بلقيس "، رائحتك تسبقك يا لص "، رد بخنوع: "أنا ثورى وموجود بالميدان منذ صرخة البداية "، ردت بثقة: "اطمئن، سوف ننظف البلاد من مكاتب خيانة الأمانة التى يفتحها أمثالك باسم العدالة، سنسحب رخصتك يا سارق القلوب "، صرخت لتكشفه أمام المجتمعين، فانزوى بعيدًا كالبرص يبحث عن فريسة جديدة، يتاجر فى أحلامها ".

ناولها بائع الترمس كوبًا ساخنًا من القهوة، وحلف مائة يمين بأنه مدفوع الثمن من جيبه الخاص، شاكرًا نصائحها لزوجته بالعودة إلى أولاده ليلة أمس، احتضنتها " شربات" بحب، ودخلتا بأحاديث طويلة حول الحى والأولاد والأهل، سمعت البتول قصة زواجهما لتخرج من جو الغضب وتعود إلى حوارى حى الشهداء فامتلأت مشاعر متناقضة، قالت بأسى لنفسها: " رغم الحصار المفروض على نبض القلوب، فلا يزال هناك بشر منشغلون بأولادهم ورزقهم ".

الأصوات المتداخلة للمنتفضين تبحث عن إجابات لاستفسارات كثيرة، يصرخ أحدهم: "لا تهم النتائج، لا يهم الضحايا، سوف ندفع جميعًا الثمن، لن يتركونا فى حالنا، سوف يرابطون بجنودهم

خلف المتحف، ليسرقوا لوحة الخلود التى لبست أرواحنا"، رد آخر: "لن يتمكنوا إلا إذا ساروا على جثثنا جميعًا".

رغم القهر الذى ارتكبته العصابة، فإن البشر الذين حطموا الأسوار لا يمكن إعادتهم للحظيرة، لم يكن هناك بد من الانتقال إلى خطوة أخرى، ليعلن زعيمهم المتصابى بالاتفاق مع الأجهزة تنحيته عن العرش إلى مجلس العصابة العاجز لاستكمال خطة التراجع التدريجى، قال بعهر: "أحتاج إلى الراحة والشفقة فى عمرى الباقى يا أولاد المحروسة الطيبين، خدمتكم عمرًا طويلا فلا تحرقونى كخيل الحكومة المريض !".

اعتقد المنتفضون أنهم حققوا انتصارًا كبيرًا، نقلت العصابة الزعيم من قصر صغير إلى قصر كبير محاط بالأشجار والعبيد ليخدّموا على عجزه، استخدم الطائرات الحربية فى تنقلاته للمدن المختلفة، نصبوا خيمة كبيرة فى الصحراء، وضعوا فيها كل ما لذ وطاب، سمحوا لنور الشمس بملامسة عظامه اللينة كل يوم لساعات طويلة ؛ ليضمنوا شفاءه من مرض البهاق والجدرى، مارسوا برذيلة لعبة المحاكمة الخادعة بمشاركة الأراجوزات والبهلوانات، ليكتشف الصامتون فى نهاية المطاف براءة الذئب من دم ابن يعقوب!

بعد ليالٍ آمنة طويلة سمعت " مريم " هدير الرصاص وصراخ أبناء الموت، قائلين: "الجيش يهجم علينا، تسلحوا بالحجارة للمواجهة "، شاهدت الدكتورة " مى" بالمستشفى الميدانى تصرخ: "لن نترك مكاننا، من يداوى المجروحين؟!، ليس لنا بيت آخر ".

وسط الزحام اقترب " هارون " منها، ابتعدت غير عابئة بابتسامته الخبيثة، عايرته لنكرانه أفضال خالها " يوسف"، عدّدت فضائحه بالمصحة وتحالفه مع عصابة بيت اللقيطات، التى استغلت خسة أهالى الفتيات بإلقائهن أمام المساجد والكنائس ليواجهن الموت وحيدات، قالت بأسى لنفسها والغاز يملأ المكان بعد هروبه وسط الدخان:" لم أتمكن من تغطية فروجهن المكشوفة للكلاب المسعورة ".

لم تفهم بأنه مكلف من قريبه صاحب النفوذ بالحضور للميدان لكتابة تقرير عن همس الغضب، قال قريبه فى لقائه بمكتب الوزارة: " يجب أن نتكاتف لنحمى أجهزة البلاد من السقوط، سوف تكافئنى العصابة بمنصب الوزير، ولن أجد أفضل منك ليكون سكرتيرًا مخلصًا للوزارة "، أنهى قريبه اللقاء معه قائلاً: " إنها فرصتنا الأخيرة للصعود وتشمم الكعكة مع بقايا الأجهزة التى

سلبت وحدها أموال البلاد سنوات طويلة "، أعطاه استمارة الهمس التى يجب ملؤها ، وهنأه مقدمًا فى حالة هزيمة الانتفاض بمنصب سكرتير الوزير.

بكت المجدلية محسورة لرؤية الشيخ سعودى أمام المسجد، متقدمًا الضباط المتأهبين لإزالة الخيام، فصرخت فى وجه: "يا واطى ، مش خايف تنجس طهارتك نهود النساء العارية وأردافهن الممتلئة ؟! "، تجاهلها متقدمًا الحشود، ليلتقى أنصاره المحتشدين ، ويشكلوا دروعًا بشرية، لمنع تقدم الغاضبين بشارع قلعة العرش المتهاوى.

تمكنت العصابة من تجميع صفوف الخانعين الذين عذبتهم بسجونها سنوات، وأطلقتهم مهزومين للشوارع بعد اعترافهم بجريمتهم بالصلاة جماعة بمساجد الرب، وتربية لِحاهم دون إذن الأمن السرى، استعادتهم من على قباب المساجد وهم ينشرون اليأس والكبت بين الناس، ليعيدوا عرشها على جثث الصامتين.

لبوا الأوامر وعادوا عبر مرشديهم، ليشكلوا أحزابًا تتبنى الدين الحنيف كمرجعية للسرقة والنهب، لم يعلنوا مكنون ضميرهم بضرورة قطع يد السارق وحرق الكفرة الذين نزحوا خير البلاد، نسوا قهرهم وخروج أبنائهم قوادين ولقطاء ؛ لأنهم لم يروا آباءهم بالماضى إلا من خلف قضبان السجون، عادوا اليوم بناءً على أوامر الأجهزة ليملأوا فراغ سلطة العدل المستحيل بالكذب، لتظل مفاتيح البلاد فى مكاتب الخونة.

دربوهم بثكناتهم البعيدة على التحايل، لتخطى مرحلة الحرية والعدالة، دعّمهم أنصار الظلام بالملايين ليؤسسوا الفضائيات، ويرشوا إعلاميين خانوا ميثاق مهنتهم، ليؤكدوا بأنهم رجال أية عصابات حاكمة فى كل العصور، بعد أن أطلقوا لحاهم ، ارتدت المذيعات الحجاب، وبدأوا أحاديثهم الإذاعية ببسم الله، واختتموا برامجهم بالحمد والشكر لرب كعبة الجزيرة على عطفه وشفقته على البنات المتبرجات، ليأكدوا ماضيهم المشين فى الانكسار .

أحاط الميدان جنودٌ كُتِبَ على ظهورهم ثلاث سبعات، رفعوا البنادق الآلية فوق أكتافهم لمواجهة العُزَّل، تربصت سيارات بالشوارع الخلفية، يخرج من أحشائها فوهات المدافع المصوبة لحرق الغضب، أطلقوا فى وقت واحد وابلاً من الرصاص فوق رءوس المنتفضين ليغتالوا أمانهم، دخل أذنابهم خلسة وسط الخيام ؛ ليدهسوا الطعام والأدوية.

انتشر الهرج والمرج، فانتهز رجال العصابة الفرصة للقبض على "نور"، كسروا يديها وقدميها، أمر رئيسهم – المدجج بشارات النصر على كتفيه بفخر ووطنية – الجنوده، قائلاً: "جروها للمعسكر لتؤدبوها "، ارتمت الدكتورة " مى " على جثتها لتغيثها، فظهر البالطو الأبيض كنجمة بيضاء وسط جنودهم، أعاقت رؤيتهم، أخفتها بثوب الرحمة لتخفيها بالشوارع الخلفية، يعلم كبير الضباط علاقة الأخوة التى تربط الطبيبة " مى" بسكرتيرة حزب الأحرار التابع لرجل المرحلة، فتحاشى ضربها خوفًا من قادته الذين وصوه بالعنف الناعم تجاه بعض قادة الانتفاض الذين هم أقارب أفراد العصابة، اتهمها الضابط مدعى الانتماء للبلاد فى تبريرٍ لتوحشه ، بمقاومتها لجنود الجيش.

تمكنوا وسط دخان القنابل من هدم الخيام، هرول الجميع إلى الشوارع الجانبية مصرين على العودة، انبهر رجال العصابة غير مصدقين أن أبناء المحرومين من الأمان سنوات طويلة يمكنهم الموت من أجل خلاصهم.

أصرت المجدلية رغم امتلاء الشوارع ببقايا الأجهزة على الرجوع للكعكة، تأبطت يد فتى أسمر، يشبه " نعيم " الإنسان، تعرفت عليه بليالى البرد، قائلة: "أنت زوجى، إذا سألنى الجنود عن هويتى "، رد بفخر: "شرف لأى كائن حى أن يرتبط بسيدة الخلق "، سارا على أقدامهما متجاوزين فوهات البنادق ، جلسا على الرصيف يتناولان الكعك، نظر إليهما ضابط أسمر لم يرتدأ خوذته وقال محرجًا: "بالهنا والشفا !"، ردت البتول: "اتفضل "، لم ينفذ أمر القبض عليهما الذى أصدره رئيسه رغم يقينه بمشاركتهما فى الانتفاض، قالت لصديقها بلطف، مشيرة إلى وجه الضابط: "يشبه كثيرًا صديقًا قديمًا، كان اسمه " وائل ".

كانت تأمل أن تشاهد " سلطان"، توقعت أن يطهرالغضب نفوس الجميع ، أبدت استعدادها لأن تغفر إساءاته، لكن " سلطان" الغارق ببار المدينة وغش شركة " طاهر" لم يكن قد وصله حتى الآن صوت خروج الصامتين للشوارع لتكسير الجدران ، كان يعتقد كغيره بأن العصابة يمكنها السيطرة على جموع أولاد الشوارع، حين جاء لخاطرها وهو يترنح خارجًا من بار المدينة متناسيًا حزن الجميع، قررت نسيانه إلى الأبد .

جيل التراجع

خرجت من مدن غبية ومشت سنوات طويلة، تبحث عن البهجة بشوارع بلاد تحتقر الحب ، أوصلتها الطرق إلى الميدان حالمة بالفجر ، قاومت بإخلاص مكر العصابة والأسياد ، فضحت تهديداتهم بالفوضى البراقة ، صمدت لمواجهة غطرستهم، فخططوا لإذلالها وكسر إرادتها، دخلوا الخيام فى جنح الليل وسحبوها بهدوء، بدعوى رؤية أخيها " زكريا"، جروها من شعرها ليدخلوها المجنزرة المملوءة برفيقاتها، فالتحم جسدها بروائح فتيات أخريات.

أغلقوا الباب وتوجهوا إلى المجهول، ساد الظلام لفترة، فجأة انطلق صوتها مغردًا لمياه النيل، قطعت الصمت وأزاحت الخوف ورددت بكائيات النهر الحزين، تحسست المحبوسات وجوه بعضهن ، تلامست الأكف بالأيادى والأصابع بالأجساد، باحثات عن الرفقة والأمان، امتزج صوتهن بنسيج واحد دافئ، فتبدد الظلام. توقفت المجنزرة من غير إشارة، وتحرك مفتاح بابها الصدئ، ليظهر الظلام الدامس بالمعسكر ، أطلقت روائح البريئات الممزوجة بعزوبة نسيم الأشجار الرعب وسط أسوارها، نزلت تتوسط رفيقاتها وهن ينطقن بأسمائهن بقوة أمام ضابطٍ، ادَّعى انتماءه إلى جيش أم القرى.

سألها بعهر عن سبب مبيتها دون محرم بالميدان، لم ترد، فأعاد سؤاله ليعرف اسمها وسنها ولون ملابسها الداخلية وعائلتها المنسية، دوّن ضابط آخر يشبه الفأر بياناتها بدفتره، لطمها على خدها الأيسر، أمسكت يديه بقوة لتعيد الخوف إلى قلبه، بادلته اللطم على وجهه، لم يتصور الجنود – الذين عاشوا فى قرى بعيدة لم تسمح لنسائها بالحديث أمام الأغراب خوفًا من الفضيحة – ردة الفعل المباغتة، دهشوا لمواجهة امرأة جبروت الأسلاك الشائكة دون خوف، فتسمروا بأماكنهم مذهولين.

أطلق الضابط خزنتين رصاص بالهواء، فهتفت زميلاتها لإعادة روح الزراع على ضفاف النيل، اضطر الضابط بأسف، كما قال زعيمهم فى نفس الليلة بالتلفاز ،لإطلاق النار تجاه قلوب العشرات منهن ليوقف التمرد، انطلقت أقدام الجنود تدهس الجثث، لتزيل الفروق بين بنات المدينة ونسائهن ، تصور زعيم العصابة كسر إرادتهن وانكسارهن. بعد إهانتهن طوال ليلتين ونهار طويل، أطلقهن مع آخرين مدعيًا الشفقة على براءتهن.

تواعدت الطيور البرية على اللقاء مرة أخرى، غادر الجميع المعسكر المجهول وسط الصحراء، ساروا ساعات إلى موقف الباص، مصممين على التحدى، تشكلت فرقة الموت من الباقى منهم، شكلوا خلايا عنقودية متفرقة ؛ لمواجهة البطش باستخدام قنابل المولوتوف وأسلحة فتاكة أشبه بالنبال، تخصص الشيخ " مرزوق" فى صنعها بورشته التى جهزها خلف المقهى بمنزله البعيد، أطلقوا على فرقتهم اسم "الردع الأخير "، حرقوا بعض المجنزرات والدبابات التى دهست رفقاءهم، دفعت العصابة بأتباعها ؛ لجمع المعلومات حول هوية الفرقة الجديدة.

بعد رحيل زعيم العصابة وتسليم مفاتيح العرش إلى مجلسه العاجز، تبارى القادة المجهولون فى تقديم التحية والعرفان لأرواح الذين نزفت دماؤهم على الأسفلت، فاعتقد القابعون بمنازلهم بمحاكمة خائن الشعب وقاتله، ووقف الأعراض وسلبها، حالمين باسترجاع التماثيل والكتب والألواح الأثرية التى سرقها الملوك والأمراء بتواطؤ ورشوة المخلوع وأتباعه، لكن المجلس الجديد طبق –على غير ما توقع الناس – خطة "التراجع التدريجى " لإعادة ترميم العرش، ليعطوا للمنتفضين درسًا جديدًا فى أصول علم الحيرة، مؤكدين بحسرة بأنهم المخلصون لزعيمهم العاجز.

جلست المجدلية على الرصيف المحيط بالمكان الوحيد الآمن وسط هذه البلاد، ناجت ربها ليفتح ثغرة بصفوفهم، تساقط عرقها بين قدميها على الأسفلت، لينبت روائح معطرة بالأمل، ظهر نور الفجر كعلامة على مواصلة طريق الخير للنهاية، غرّدت على غير عادتها أسراب اليمام والعصافير فوق تاجها العالى. رغم البكارة الخافتة البادية بين الليل والنهار فإن المجدلية اعتقدت أن الشمس تتوسط السماء.

حين شاهدها الذئاب المسعورون، قال الضابط: "عادت المومس مرة أخرى ، غير عابئة بحياتها"،أمر جنوده المتخفين بأزياء مدنية ليجروها من شعرها، تسرسب جسدها الطاهر على الأسفلت ، فظهر فرجها عاريًا. رغم مقاومتها للسحل بقلبها النابض، فإن ممثلى الأجهزة دهسوا بأقدامهم النتنة عظامها ، كانوا سعداء وهم يجرحون وجهها بشماريخهم، قال قائدهم: "اخلع حجابها ليشهد الشعب العظيم بقوتنا"، قاوم رفقاؤها ليعيدوها إلى صفوفهم، دخلوا وسط الجنود

ورفعوا جثتها وحملوها إلى مستشفى الميدان وسط صمت وذهول الضباط الذين نسوا منذ زمن بعيد عقيدة الأحرار وقت الحروب.

"خلف براكين العدو ينمو الشر"، هكذا قال " يحيى " وهو يرى صورتها عارية على التلفاز، اكتفى بمصمصة شفتيه، قائلاً: "يجب ألا يعاملوها بهذه القسوة "، ذهب مسرعًا لخيمتها، متوقعًا احتضان امرأة مكسورة الجناحين.

قابلته بحياد، ناسية نكرانه المؤلم وإغلاقه الممر الوحيد أمام امرأة رغبت فى التنفس آمنة وسط الأحياء، لم تهتم لإعادته قصة عريها، تلمست خنوعة قائلة: "اغرب عن وجهي، موقعك معهم خلف المتحف لسرقة بهجة البشر وتضحيتهم كعادتك ".

اعتذر بأدب لانشغاله بحماية صناديق الخيارات والاختيارات التى ستخفف الآلام، وتعيد الاستقرار، قال كلاماً كثيرًا عن تحالفهم لاختيار المجلس المنتظر الذى سيطبل لضباط العصابة، وهم عائدون إلى ثكناتهم العسكرية.

برر اتفاق مجموعة المساواة مع أنصار الظلام، لوقف نزيف الدم والإهانة التى طالت الجميع، بصقت فى وجهه قائلة: "يا كذاب، أين الحقيقة لفضح عهركم، يا حانوتى القلوب، أصبحتم أضحوكة بلحاكم الطويلة المتخفية فى ثوب الحرية والعدالة "، صرخت فى وجهه متسائلة: " متى سترفعون راية الإنصاف يا جيل المستقبل ؟".

رد بصلف: "أنت عنيفة كعادتك، وطبيعة المرحلة تحتاج الحكمة، يجب أن تنتظرى قليًلا قبل إصدارك للأحكام "، أصرت على قطع أواصر الألفة، فدارت حول نفسها متجاهلة وجوده، لتصنع إطارًا صلبًا بينها وبينه، يحميها من نظراته المهزومة.

عايرها بحبيبها " سلطان" الذى تركها وحيدة، قال بتشفٍ: "شربتِ فى النهاية كأس المرارة لتهورك "، أعادت الدوران حول نفسها، فاردة ذراعها لقطع حبال التواصل، لم تسمع تشفيه

المخزى، ضحك باستهزاء على جنونها الرسمى، المُوثَّق بدفاتر مصحة المجانين ، غادر خيمتها حائرًا من حركاتها الغريبة، متيقنًا بتجاوزها ناموس البشر.

وسط أجواء الحيرة ذاع صيت رجل ملتحٍ كقائد جديد، فوجئ أهل الحى بظهوره على شاشة التلفاز معانقًا زعيم العصابة، لم يصدقوا فى البداية ما يشاع عنه، باعتباره تابعًا لجيش الأجهزة السرية لاعتقادهم بمعرفته ، عاش بالحى كطاووس، رغم إيمانه بالصلاة على طريقة إخوان الكعبة، فإنه تمكن بتسلقه من كسب ثقة الجميع، تغلغل فى الحى كشجرة اللبلاب، لم يتصور جيرانه أنه بديل للعصابة التى غش رجالها بالموازين ونشروا العَوز وسط الحوارى.

اكتشف الجميع سبب محنة ابنته المنتحرة ؛ لمعاشرتها رجلاً قاسى القلب، مخادعًا، مدعيًا أبوتها، أحكم قبضته عليها بعد اكتشافها الشر فى طمعه واستيطانه بضميره ، حرمها الزواج من حبيبها، لتموت صامتة محسورة قبل الأوان.

يجلس الشيخ " رشدى" والد سماح اليوم بقصر زعيم العصابة الفخم، يدير معهم معركة نشر الأكاذيب والبلطجة والقتل كضرورة لعبور المرحلة، بصرف النظر عن الدم والثمن، قام بارتداء القناع السحرى لسرقة روح البلاد.

قال للزعيم ناصحًا: "اختيار الناس ممثلين عنهم هو المخرج الوحيد لنجاح الخطة، أقترحُ إجراء استفتاءات وانتخابات لمجالس شعبية وتشاورية ومحلية ورئاسية ودستورية، ليغرق الناس فى فوضى التشرذم سنوات طويلة"، قال "إبراهيم" زعيم حزب الأحرار بالاجتماع: "يجب دهس المنتفضين بالدبابات لكسر إرادتهم، وملء ذاكرتهم بمشاهد مرعبة ككوابيس لن يتخيلوها أبدًا بأحلامهم ؛ حتى يتمكن الجيل الجديد من احتلال المناصب فى غفلة من الزمن"، أكد ضرورة اصطناع خلاف وهمى مع الشيخ سعودى كسيناريو موازٍ لقلب الموازين ونشر الحيرة ؛ لإعادة السلام مرة أخرى إلى قصور السلاطين وحماية المقدسات من الفوضى العارمة للجياع ".

اتفقوا مع "يحيى" و"موسى" ومجموعات الفوضى الجديدة لتأسيس أحزاب ثورية وقومية ووطنية وفلاحية وعمالية، ليهللوا ويرقصوا ويطلقوا النيران فرحًا بخروج الناس، للاستفتاء والانتخاب، وهم يعلمون مسبقًا بالنتائج المزيفة.

يعلم الصامتون في كل المدن و القرى هذه الحيل، فخرجوا ليصوتوا على مصيرهم البائس؛ لتهدأ العصابة وتطمئن بأن اختيار أعضاء تنظيم إخوان مرشدهم الروحي، والشيخ سعودي، وزعيم الكرامة، وكتلة الأحرار، وتحالف النور، وثورتنا مستمرة، كافٍ لعبور البلاد مرحلة العهر، بصرف النظر عن النتيجة، فقد هلل المشاركون بالزفة، رغم سخرية ملايين الفلاحين والأسطوات ونساء المنازل اللائي زغردن من شبابيك وبلكونات شققهن ؛ لتسلم أكياس الأرز والسكر كبديل لأصواتهن المهملة !!

حاول المرشد " إعادة " مريم " لتعيش بحجرة "سماح" بمنزله، بكت "المجدلية " منهارة، متذكرة وجه صديقتها الطاهرة، حين كرر طلبه قائلاً: " شرف لي أن أستضيفك يا أم النور " ، استعادت توازنها ووقفت مرفوعة الرأس شامخة وبصقت في وجهه، قائلة: "يا مجرم قتلت والدي ذات ليلة غابرة، الجميع يعرف القصة، سوف أنال من قلبك القاسي يومًا ما ".

دهش الشيخ " رشدي" لذاكرتها القوية وهي تصف الدم النازف من فم المصري الذي قتله أنصاره لرفضه وصايا الشيخ رشدي في الليلة الأخيرة ، قالت بتحد: حكى على صدري قبل موته ألاعيبك وحيلك لإجباره على غلق المحل، لا تقلق فسوف أقتص من دمك .

جسلت وحيدة بعد رفضها الرحيل مع منقذ العصابة ، تزاحمت في رأسها خطط مكر وخسة الملثمين بالغدر، تواصلت مع عوالم غريبة، قالت لنفسها رغم الضجيج: "لن تمر الليلة بسلام، الذئاب يضعون أيديهم على الزناد ليطلقوا الرصاص بعيوننا".

تذكرت جثة والدها أمام منزل المرشد والدم ينزف من جسده، يعلم الجميع رفض والدها وصايا الشيخ في غلق محل الملابس الداخلية للنساء وتحويله إلى مطعم، رغم أن الشجار لم يكن كبيرًا، فإن المرشد هدده في الفجر بأنه سيسلط أنصاره من الأحياء البعيدة ليدخلوا المحل

ويفتكوا بسكاكينهم جثته، وبالفعل شاهد بعض الجيران هروب الملتحين بعد جريمتهم، لكن العصابة التى شاركت المرشد فى إخفاء الحقيقة حققت فى القضية وقيدتها ضد مجهول.

رغم انتشار الحكاية والشك فى دور الشيخ بالجريمة ، فإن " مريم" ظلت عاشقة لابنته الطاهرة سماح، تمكن بدهاء من مساعدة "رحمة " سنوات طويلة حتى لا يعيد الناس التفكير فى جريمة قتل زوجها ، لكن القصة التى نسيتها "مريم" وكانت تعتبرها دربًا من الخيال، عادت لتطفو فوق سطح الأحداث، رغم مرور أكثر من عشرين عامًا على ارتكابها وقيدها بدفاتر العصابة ضد اللهو الخفى المجهول .

شيء ما يدعو إلى الحسرة، لم يتصور أحد أن يهرول القادة الذين ملأوا الدنيا ضجيجًا قبل اندلاع الغضب مطالبين العصابة بالإنصاف، بعد خروج المنتفضين إلى الشوارع، للجلوس على كرسى كعكة المحروسة ، آملين فى تحسس مؤخرتهم ملمسَه الناعم، متناسين مطالبتهم بالرحمة والعدل، تكاتفوا جميعًا بقائمة واحدة، ليخدعوا الناس مقتسمين مقاعد مجلس العرش فى رضا ؛ بدعوى حمل الخير للجميع، ورغم أن أهل الحى اختاروهم فإنهم لم يفهموا كيف جمعت قائمة واحدة : الشيخ "سعودى" ،والمرشد" ،و يحيى" ،و" موسى" ،و"إبراهيم" ، مع اختلافهم فى قضايا تعدد الزوجات ، وجمع الجزية من الأقباط ، وتولى الإمارة، يبدو أن هناك شيئًا يجمع هؤلاء لم يفهمه أبناء الحى.

سال لعابهم جميعًا فدخلوا لعبة الشيطان ليعيدوا ترميم العرش، متناسين عهودهم ؛ بضرورة المساواة بين الناس، وعدم حبس النساء خلف أحجبة الظلام، انتهزت العصابة حنين أردافهم لقماش القطيفة الذى يغطى بطن الكرسي، لتستمر فى خلع الضمائر وإلقائها فى سلة المهملات، بصقوا عليهم وهم يدلدلون ألسنتهم، ويريلون على تراخيص الأبواق والميكروفونات لينشروا كذبهم بمشروعية وشفافية بين الصامتين.

استغلت الأجهزة اللعاب السائل على مساند الكرسى السرى، وأداروا بخفة مع القوادين الخطة لتنفيس الغضب، شكلوا لجانًا ثورية كثيرة ليهيمنوا على عقول الناس، باعتبارهم حقول تجارب للمحرومين من الحب. رغم اندماج الجميع بقوائم كعكة العدالة الراقصة، فإن روح الانقسام بمجموعة المساواة أدت إلى تراجع الانتفاض، أعلن يحيى بمؤتمره الانتخابى قائلا:

"الاستقرار وحماية أركان الدولة من الفوضى أهم من تطبيق قيم المساواة والكفاح والمواجهة فى المرحلة الراهنة".

تراجعوا عن مواجهة الدبابات، لم يتعودوا مواجهة الرصاص والمجنزرات، اختفى أنصار تحالفهم الجديد وخلاياه الكثيرة عن الالتحاق بالمنتفضين ، بدعوى خصوصية اللحظة الفاصلة، رفضوا حمل السلاح كمواجهة وحيدة لوقف اصطياد الأبرياء من فوق المبانى، تركوا أنصار العصابة يدهسون أجساد الصبايا وأرواحهن على الأسفلت، وقرروا المشاركة بكل قوة لتشمم كعكة العرق والشهد، ورغم ذلك تشكلت فرقة الردع الأخير، لتلقن الجيش المهزوم درسًا، عجزوا عن تفسيره، اغتالوا الضباط الذين قتلوا زملاءهم بمعسكر الاحتجاز، نشروا صور ضباط مطلوبين والبحث جارٍ عن منازلهم لحرقها.

غنَّى الناس فى صمت نشيد الحزن ، بعد إعلان نتيجة الخنوع فى صراع هادئ هز أركان الضمائر ، قال أحد المخبولين لنفسه والدموع تملأ عينيه وهو يشاهد القادة المجتمعين على ترابيزة قمارالعصابة : لا أمل فى النجاة .

أن تمشى خلف الممر ، وتلعن الدنيا ، وتعيش فى قلب القبح زمنًا ، وتشاهد الحيرة غير مندهش ، وتحس طيف الذئاب والثعالب المحيطين بالأبرار لسرقة روحهم ، لتختار بين النهاية والخنوع ، فأنت بالميدان الحائر تقف منتظرًا دورك فى الموت الفطيس، ويجب أن تلعن الدنيا وتخاف الأيام ولا تعرف معنى للغد ، وتُحَرَم تشمم رائحته ، لأنك تواصل الطريق إلى الجنة.

ألا تظهر قطة صغيرة طيبة بجوار الرصيف المملوء ببقايا الطعام تنظر إلى عينك ، لتعطيك إشارة إلى تلاقى الأرواح الطيبة والرضا بالمصير؛ ، فأنت بقلب الخوف تدوس قدماك الطاهرتان على قبعات كاذبة لقادة مخدوعين ، قرروا قتل المزيد من الأبرياء دون حساب للخراب الذى سيلحق بمستقبل الأطفال الصغار. أن تقف مذهولاً حائرًا بين ألوان السماء وبهجة الصبايا المحيطات بالكعكة ، تستمد البركة من صراخهن ، فتفقد الرؤية ومعرفة الفرق بين موقف الباص أو طابور العيش ، فأنت مأخوذ بهدير المظلومين الصارخين فى وجه السفلة ليرحلوا .

أن تشرب من بـرك الـدم ، وتأخذ حبـوب منـع الحمـل علـى أنهـا مخـدر للأعصـاب ، وتمشى فى الشوارع تضرب كل من يقترب منك بأى قالب طوب يقع بين يديك ، فأنت مخلص للروح النقية ، لكنك مدان من رجال المنازل بصرف النظر عن طهر ضميرك .

لا يهم أنك تتمنى نهاية سعيدة لحياتهم ، لا يهم أنك تعشق الموسيقا أو ألوان الورد أو رائحته ، لا يهم لأنك ابن الزوانى الذى يجب حبسك بدار اللقطاء ، وعليك أن تستعد ليخلع الكفرة عينك ويدهسها المارة ومشاهدو التلفاز بالمنازل المسحوقة ، دون أن يدروا أنهم تواطأوا ليحرموا أنفسهم رؤية النور بصمت مخزٍ ، فتصر على مواصلة الطريق ، غير عابئ بالنتيجة .

يتجاهلون "تطليعك بالروح "، مدعين تعطيلك دوران العجلة التى تفرم عظامك، يتهمونك بأنك تعاشر أجمل امرأة أبدعها الله بخيام الغجر وسط الكعكة، رغم كل ذلك يجب أن تستكمل الرحلة.

الخبايا تظهر فقط للعارفين بطهر أرواحنا، طاروا بعيدًا فوقنا ليشاهدوا الرحلة منذ الميلاد حتى الممات، تمر حياتنا أمام أعينهم كطريق مرسوم منذ الولادة، يشاهدون النهاية المؤسفة ويبلغوننا بأسى لتغيير طريقنا، لكن الإنسان لا يمكن أن يفهم إلا طريقه الغامض، بصرف النظر عن نصائح الآخرين، فيسير جاهلاً بمصيره، رافضًا نصائح أولياء الله الصالحين بمشقة حمل الأمانة.

فليس أمام البراح الذى سيغرق قلبك سوى الفضاء الواسع: هكذا يفقد الأنقياء طموحهم بنبى أمين خلال رحلتهم الطويلة، بعد رؤيتهم عهر قادة الكرامة والمساواة وتحالف اللصوص ومدعى الأمانة، ليظل قرار المواجهة وتحدى النهاية فرضًا وحيدًا على حياتهم .

لم تطمئن " مريم" وسط الأحداث لمشاهدة :"موسى" ،و"يحيى" ،و"سعودى " ،و" إبراهيم" مهرولين خلف المرشد ناحية خيام المنتفضين، لم تمر ساعة حتى امتلأت السماء سحبًا من

دخان الغاز القاتل، تقدم المأجورون نحو الميدان ليقتحموه، مطلقين وابلاً من الرصاص المسقوف دون وعى بسقوط الضحايا ونزف الدم.

وقفت خلف مبنى عتيق، تحتمى من الرصاص وقنابل الدخان، السماء تمتلئ طوبًا أصفر بأحجامه المختلفة ؛ نقلته طائرات العصابة من جبال الحجارة البعيدة بالصحراء، وأنزلوه فوق البنايات العالية ليقذفوها بنظام وتخطيطٍ فاق تصور الأعداء ؛ ليفقأوا عيون الحالمين بموضع قدم بأوطانهم.

وسط الدخان هرول الضابط المخنث وراء طيفها، أمر جنوده بقتلها بعد دهس كرامتها ؛ للانتقام من بكارتها وإخفاء معالم الجريمة، اختطفتها بقايا أجهزة منزوعة المشاعر، حبسوها بغرفة مظلمة وحيدة خلف سور المتحف، لطمها بعض الضباط، أمسكها آخر ليفعص صدرها وقلبها النابض، صرخت وسط العتمة، كتَّف جندى ملثم يديها، تفرغ رابع لإخلاعها ملابسها،وتكميم فمها.

بين الظلام وفقد الذاكرة غابت مذهولة، شدوا قميصها ليكشفوا عورتها، تحسست فرجها أصابعُ متحجرة قاسية لضابط متصابٍ، دخل بأصبعه الكبيرة يتلمس فتحتها، سمعت صوت كهل غريبًا رغم الإغماء، قائلاً: "دى مخرومة يا باشا! "، رد عليه صوت منزوع المشاعر: "اكتب تقريرك بكشف عذريتها المزيفة وطهرها الكاذب؛ ليعلم الشعب العظيم دورنا فى صيانة بكارة بناته وشرفهن!! ".

دخلت غيبوبة طويلة بسبب حقن المخدر التى فجرها المجرمون بدمائها، جاءها صوت "سلطان "، مهددًا بنهاية علاقتهما إذا طالبته بالاعتراف، لم تفهم العلاقة بين موضع أقدام البشر بالميدان، والبحث بقلبه عن مكان للرحمة، لم تعثر على علامة واحدة لتغفر عهر النبى الكاذب، صرخت وسط الحجرة المظلمة وحيدة: "لا تهمنى علاقتك أو نكرانك، سوف أتدفأ بأحضان رفاقى لتنظيف الدنيا من الدنس، توقعت أن يرد بفجر فى وجهها: "لم أنتظر لكِ إلا هذه النهاية يا مجنونة "، ذهلت من نبرة صوته، يتركها كعادته، تبحث وحيدة عن خلاصها.

قالت مذهولة، خائفة من إعادة فقد الذاكرة: "تعلم أنهم كشفوا عذريتى خلف المتحف الذى احتضنتك بحجراته الواسعة، وقرأت لك بصوتٍ خافتٍ الترنيمات القديمة لتقديس المرأة، باعتبارها أم الحياة "، لكن الحبيب اختفى مرة أخرى لتختار مصيرها بحرية.

ألقوا على وجهها مياه المجارى، اقشعر بدنها من البرد القارس عائدة إلى وعيها، صرخت بهستريا من الألم، كادت تقتل جنديًا يدَّعى حراستها، أكلت أصابع يديه فخر دمه على ملابسه صارخًا: "يا بنت الكلب يا شرموطة !"، تيقنوا بفقدها الذاكرة مرة أخرى ، فتركوها تهرب من جحرهم، لتموت ككلبة ضالة بالشوارع، لم تتمكن من مواصلة السير فوقعت على الأرض من الإعياء.

رفعت جسدها الفتيات اللقيطات اللائى هربن من الدار بعد مقتل حارس الأسوار، تلمست الدفء بأيديهن، حاولت قريناتها دعمها لتقاوم آلامها، طبطبت عليها فتاة لتهدئ من روعها، قائلة: "مناصرو الموت، لا يمكن أن يمروا بجريمتهم سالمين".

أحاطوها بدفء وطهر أرواحهن لتطمين قلبها، لتفقد ذاكرتها ملامح الضباط وظلام الأسوار، التفَّت حولها العيون الصافية لتُطهِّر قلبها الريان، سقينها الخير لشفاء جروحها.

تذكرت فجأة الفتيات اللائى عاشت معهن شهورًا بدار الإيواء، تعلمهن أغانى الحب، عادت أدوار مسرحية "بيت الشر" وعهر المديرة والمشرفات لذاكرتها، استعادت وجه الدكتور "هارون" وشبكة الدعارة بإدارة البيت، التففن حولها ليذكرنها بأسمائهن، إنهن بالفعل البنات العفيفات اللائى عاشرتهن بالدار، حكين لها عن كيفية هروبهن من الدار بعد ترك الأبواب مفتوحة، إثر اندلاع الغضب ومقتل الحارس على يد أحد القوادين الذى اغتصب ثلاثًا منهن، ومات القواد بخنجر مسموم وضعته " عائشة" الراقصة فى رقبته من الخلف وهو يمتطى زميلتها .

خرجن يبحثن عن ظل رجل يأمنَّ شره، سحبتهن المحطات ليصَلن إلى الميدان، أرشد عنهن بقايا القوادين، ليسوقهن الجنود من الخيام بجنح الليل، ويحبسوهن بمجنزرة حجز الزوانى

أيامًا كثيرة دون طعام، انطلقت الروائح القذرة بسبب تبولهن وتبرزهن على أنفسهن داخل السجن المتنقل، تهامس المارة للتأكيد على أنها مقبرة أو مقلب للقمامة، وقتها تذكر الضابط حبسهن، ففتح بابها المطل على أسوار المتحف، متوقعًا موتهن، ومع ذلك خرجن أحياء ؛ ليحملن " المجدلية " ويخففن جراحها بعد دخولها غيبوبة وفقدًا مؤقتًا للذاكرة.

رغم الأسوار والدبابات المحيطة بالمتحف، أعادت "عائشة" البهجة إلى وجه المجدلية، بترديد الأغانى التى فجرت غضب المديرة، دندنت لحن أغنية: "تانى وتالت ورابع ...بحب وميهمنيش" ، لتفتح مريم عينيها ضاحكة، واجهن المحرومات من الأب والأم قسوة الضباط بشراسة، تمكنَّ رغم الدم النازف من أياديهن مقاومة اغتصابهن والعودة سالمين، قالت "البتول " لصديقاتها: "كأن الدنيا لم تتغير"، ردت "عائشة " التى وضعوها بالدار لممارستها الدعارة دون تصريح القواد : "لا فرق بينهم، الاغتصاب وسلب الروح بالدار أو بالمعسكر أو بالسجن أو بالشارع يأتى دائمًا من أولاد "زوانٍ"، يرتدون دائمًا ثوب الحماية ".

حضرت الكوافيرة خيمة " المجدلية" بصحبة مدنيين وثوار يتقدمهم الأب "زخارى" والشيخ "سعودى " لتسليم الفتيات للدار ، قالوا بعهر: "القانون العسكرى كالسيف على رقاب الجميع، ليس للقطاء إلا بيت الإيواء ليحميهن من غدر الدنيا "، سخرت الكوافيرة بمحاولتها فضح البنات، قائلة: "ماذا يوجد بالميدان لا توفره الدار يا ساقطات؟ ".

حين جاءت الدكتورة " مى" وطالبتها بترك الفتيات، بكت " بوسى" بتصنع واضح وقالت: " كيف تتفقين مع داعرات على أختك التى جعلتك طبيبة، ردت "مى": " جهدى ودراستى بالكلية أهلانى لأحصل على الشهادة، أما أموالك التى صرفتها بعد موت والدنا، فأنت تعرفين أننى أقوم بتحويل نصف مرتبى إلى حسابك، ليس لكِ فضل علىَّ، لم أجبرك على اختيار طريقك،عودى إلى حزبك وعشيقك، لكن لا تدنسى خيامنا مرة أخرى ". كان مشهد نكرانها مهيبًا، أبكى " مريم" وحاولت تطييب خاطر الكوافيرة، لكنها زجرتها، وقالت بفجر وهى تغادر الخيمة: " أعرف حقدك واصطيادك فى المياه العكرة، الجميع يعرف رفض " سلطان" لأنوثتك، حتى أمك تركتك ككلبة ضالة بالشوارع وهربت بأخوكِ خوفًا من جنونك"، بكت المجدلية لجحود الكوافيرة ، أعادها قلب "مى" والبالطو الأبيض من مجارى الظلام لتتشمم الغضب وهدير المنتفضين من جديد.

لكن شيئًا ما يظهر فى الأفق، ظهرت علامته فى وجه الكوافيرة وهى تقول للفتيات: "اهربن سوف تتفجر الخيام بالدم، انفدن بجلودكن، نحن أبناء مهنة واحدة ".

كتبت" مريم " في ورقة اخرجتها من جيبها : "أكتب اليوم عن مرارتى وأوزارى ؛ لأننى صدقت خديعته طوال السنين الفائتة، لم تبخل عينى للحظة بالمن عليه، بحمايته وحفظ أسراره ليقينى بأنه المخلص، حلمت سنين بخطفى على حصانه الأحمر لأنام على سريره الواسع، بعد انتشالى من البرارى الموحشة والأحراش المميتة، ليدفئنى بالحب من جسده الملتهب.

أكتب اليوم عن فجيعتى بتفجير العيون المملوءة بالبنفسج والطهر، صوت البنات المأخوذات بتهديدات الشيوخ والكوافيرة من حولى يدعونى للفخر، حضر الكاذبون الخيمة منذ دقائق، مجهزين بأسنانهم المتوحشة لنهش أجسادهن، لكنهن رفضن العودة إلى الدار دون الثأر من مغتصبيهن ، أخفت الورقة بجيبها بعد أن كتبت الجملة الأخيرة: لا يمكن إزالة جرائمهم من ذاكرة البشر أبدًا".

أدهشها وجود عشرات الضباط وسط الخيمة التى تتوسط الكعكة، رغم ارتدائهم زى العصابة، لكن عيونهم تمتلئ حبًّا كالشيخ مرزوق وزوجته " بهيجة"، سمعتهم يعلنون بفخر قائلين: "نحن ضباط جيش المحروسة متضامنون مع الانتفاضة "، تحدثوا كرفاق عن السرقة والغش وخيانة الزعيم الجديد، قالت المجدلية لنفسها: " لم يتحملوا القهر داخل الثكنات، فعادوا إلى الميدان لدعم الأمهات والبنات المغتصبات والقصاص من قاتليهم".

أعادتها للسكينة من جديد جارتها الشبيهة " ببهيجة " زوجة الشيخ " مرزوق "، حامى ذاكرتها من العبث بقولها: "البرد شديد الليلة، أتحتاجين غطاءً يا ضى عينى ؟"، احتضنت الجارة رجلاً ينام بجوارها بحب، انتشر دفء معانقتهما بالبقعة، ذهبت البتول فى سابع نومة بحضور ملاك الحب، طبطبت عليها السيدة الطيبة، مدت البطانية لتغطى قدميها العاريتين، عادت البتول إلى طفولتها وهى تتسلق سطح منزلهم، لتسمع الكتاكيت الصغيرة تغنى برضا خلف أمهم التى تعلمهم السلام، رفض "كتكوتان "نصائحها، فخرجا من العشة لبراح الأرض، تعلما الكثير عن الأمانى والعشق، كبرت أعرافهما ، قابلا الأرنب والفيل والفأر والثعبان والحصان، ليفهما دروس الحياة لمواجهة المصير المجهول.

عادا فخورين بجولتهما، وجدا أمهما وإخوتهما مذبوحين ليلتهمَ لحومهم صاحبُ الحظيرة، لم يكن فى ذهنهما قط هذه النهاية المأساوية، كيف فقدا ماضيهما لحظة عودتهما سالمين، آملين فى تعليم أقرانهما دروس وعبر الرحلة، كان أملهما رؤية الأم ليحكيا عن البهجة والمغامرة خارج الأسوار، فهربا غير عابئين بالمصير ليفجعهما الحرمان والفقد، قالت حالمة لنفسها: "الماضى الممتلئ حبًّا يضيع منا، حين نصل إلى النهاية ".

انطلق الرصاص مدويًا وسط الخيام، تيقظت وسط الضحايا المهرولين، أفزعها وجوه منزوعى المشاعر، وهم يدوسون بقذارة حذاءهم على جثة رجلٍ لايزال نائمًا بجوارها، صحا مفزوعًا قائلًا: "متقتلونيش حرام عليكم، أنا مش "مكرم "، أنا أخوه، متقتلونيش ".

امتلأ قلبها النابض بدخان الرصاص والقنابل، انتشر الضباب ليعمى الرؤية، دخل عشرات الملثمين الخيمة مدججين بالسلاح، أفرغوا خزائن بنادقهم بكثافة رهيبة فى رءوس وقلوب الضباط الذين انضموا إلى الانتفاضة، اختفت السماء حزينة على القديسين، وقفت المجدلية مفزوعة، رافعة يديها للرب تطلب الرحمة، أى ظلم تقدمه الدنيا لقلبها الريان وهى تشاهد الهمج يغتالون البراءة ؟!.

صرخت فى البرية بصوت أفزع الجميع ، قائلة : " يارب أين هو؟، متى يفوق قلبه من فجوره وخموره؟، أنسى كل حبى وإخلاصى؟! ، أحُرِقَ قلبه وماتت أحاسيسه للأبد؟! .

وسط بحور البكاء ، شدها جارها الطيب لتفيق من غيبوبتها، صارخًا: "العسكر والملثمون يحرقون الميدان"، نظرت مدهوشة من خوفه عليها عائدة للأحداث ، قالت بحب، ناظرة إلى عينيه كبتول: "انسَ شر مكرم أخيك وتطهر، تذكر صلة الرحم لأمكما الرائعة، أخرجتكما للدنيا لتنعما بالسلام ".

انتصبت على الأرض، جرتها رياح وأجساد الغاضبين الهاربة من القتل والسحل والدهس إلى الشوارع الجانبية، قالت إحدى النساء بإصرار على ناصية الشارع: "غدًا سنعيد نصب الخيام، وإن غدًا لناظره قريب ".

الوراق
مايو ٢٠١٢

2012 صفحات

صفحات

www.safahat.com